عبد الوهاب مطاوع

يوميات طالب بعثة



يوميات طالب بعثة

©
الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 1542 / 2004

الترقيم الدولي : 0-828-270-977

الطبعة الثانية : صفر 1427هـ - فبراير 2006م
الطبعة الثالثة : محرم 1430هـ - يناير 2009م

عبد الوهاب مطاوع

يوميات طالب بعثة

الدار المصرية اللبنانية


بسم الله الرحمن الرحيم

إنى أتبع أفكارى أينما قادتنى!

الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت

(١٥٩٦ ـ ١٦٥٠)

هذا الكتاب

هذه صفحات كتبتها عام ١٩٨٦ عن رحلة طويلة قمت بها إلى بريطانيا فى أبريل عام ١٩٧٧، وأقمت خلالها لأكثر من ثلاثة شهور فى بيت للطلبة بقرية صغيرة، بالقرب من مدينة كارديف عاصمة مقاطعة ويلز البريطانية، للالتحاق بدورة دراسية عن الصحافة بمعهد طومسون البريطانى للصحافة.

وقد أصدرتها فى عام ١٩٨٦ فى كتاب صغير بعنوان «مذكرات طالب بعثة».. وحين انشغلت بإعداد فصول كتابى «سائح فى دنيا الله» تذكرت فجأة هذا الكتاب الصغير التى نفدت طبعته الأولى، ولم أحاول إعادة طبعه مرة أخرى ربما استشعارًا لأنه كان من تجاربى الأولى فى أدب الرحلات.

وفكرت جديًا فى أن أعيد كتابته من جديد لأضمه إلى كتاب «سائح فى دنيا الله» وهممت بذلك فعلاً.. لكنى تراجعت فى اللحظة الأخيرة، وفضلت أن أختار بعض فصوله وأضمها إليه كما كتبتها وقتها وبإحساس ذلك الزمان الذى سجلته فيه، بل وبأسلوبى

أيضًا فى الكتابة وقتها، وضممت هذه الصفحات بالفعل إلى كتابى «سائح فى دنيا الله» كفصل مستقل فى نهايته واخترت له عنوانا: «بريطانيا ٧٧.. صفحات من مذكرات طالب بعثة»، ثم مرت السنوات ونفدت الطبعتان الأولى والثانية من كتاب «سائح» وبدأت فى مراجعة بروفاته استعدادًا لإصدار الطبعة الثالثة.. فعبرت كل فصوله ثم توقفت أمام الجزء المستقل فى نهايته وأعدت قراءته.. فشعرت بحنين غريب إلى هذه الصفحات وسألت نفسى: لماذا اختزلت كتاب مذكرات طالب بعثة فى هذه الصفحات.. ولماذا لم أعد إصداره ككتاب مستقل بعد ذلك أبدا..

هل خجلت من إعادة طبعه معتقدا أنه تجربة شباب فى الكتابة.. ولا داعى للاحتفاء بها، ووجدتنى أعاتب نفسى على إهمال إعادة طبع هذا الكتاب وأتساءل: وهل يخجل الإنسان من شبابه؟ وأليس إنتاج الكاتب الأدبى كله سلسلة متصلة الحلقات تسلم إحداها للأخرى.. وهكذا قررت إعادة إصدار هذه الصفحات، ككتاب مستقل مرة أخرى كما كان عند صدور طبعته الأولى، فإذا لاحظت اختلافًا طفيفًا فى الأسلوب بين هذه الصفحات وبقية كتبى فاعلم أنه فارق الزمن.. وربما أيضًا فارق الإحساس من مرحلة إلى مرحلة فى رحلة العمر!

* * *

مقدمة الطبعة الأولى

سأل المرحوم صالح جودت.. الأستاذ العقاد يوما: ماذا تقرأ الآن يا أستاذنا؟ فأجاب العقاد: أقرأ كتابا عن بريجيت باردو(*)!.. فرد صالح جودت مندهشا: الأستاذ العقاد يقرأ عن بريجيت باردو؟

فقال العقاد: نعم.. فليس هناك كتاب أقرأه ولا أستفيد منه شيئًا جديدًا، فحتى الكتاب التافه أستفيد من قراءته، أنّى تعلمت شيئًا جديدًا هو ما هى التفاهة؟ وكيف يكتب الكتاب التافهون؟ وفيم يفكرون؟

ولأنه ليس هناك كتاب مهما بلغت تفاهته لا يستفيد منه القارىء الذكى، فإنى أدعوك لأن تقرأ هذه المذكرات لعلك تجد فيها شيئًا مفيدا فإن لم تجد فشيئًا ممتعًا.. فإن لم تجد.. فشيئًا أفضل قليلاً من ملل الفراغ والضياع.. فإن لم تجد شيئًا من كل ذلك.. تعلمت منه الدرس الذى يتعلمه كاتب كالعقاد من قراءة الكتاب التافه، وهو معنى التفاهة! بشرط واحد هو أن تكون قارئا ذكيا كالعقاد، فالقارىء الغبى

(*) ممثلة فرنسية كانت مشهورة فى الستينيات.

قد يقرأ الكتاب القيم فلا يستفيد منه شيئًا، أما القارىء الذكى من طراز العقاد، فهو وحده الذى يستطيع أن يجد فى أكثر الكتب تفاهة، شيئًا أو معنى يستحق من أجله عناء قراءته!

قبل البداية!

كنت فى ذلك الحين أصدر صفحة أسبوعية فى جريدة الأهرام بعنوان «الوجه الآخر» حين وقع على اختيار مدير تحرير الأهرام الراحل المرحوم محمود عبد العزيز؛ لألتحق بدراسة قصيرة للصحافة فى معهد طومسون ببريطانيا، وقال لى يومها محمود عبد العزيز إن هذه الدورة بالذات مخصصة للصحفيين العرب وحدهم، لذلك فإن تجربتى فى هذه الدراسة ستكون فى التعامل مع صحفيين من العرب، على خلاف كل الدورات السابقة للمعهد، التى كانت تضم صحفيين من كل دول العالم الثالث من أستراليا وأمريكا الجنوبية وآسيا وأفريقيا.

قلت لنفسى: لا بأس إنها فرصة للدراسة ولمعايشة الحياة فى بريطانيا لعدة شهور متصلة على خلاف الرحلات القصيرة السريعة التى قمت بها من قبل لبعض دول أوروبا. وخلال فترة انتظار السفر كنت قد قرأت الكتاب السنوى عن بريطانيا ٧٧، الذى يحتوى على معلومات عامة عن بريطانيا، ابتداء من نظام الحكم إلى النشاط

الاقتصادى إلى أسماء الوزراء إلى أسماء الصحف والمؤسسات الكبرى.. إلخ، وكنت أيضًا قد قرأت ملف بريطانيا فى أرشيف الأهرام كعادتى قبل السفر إلى أية دولة.

وفى صباح يوم ٢٨ أبريل عام ٧٧ نهضت من نومى عند الفجر، وقبلت طفلى الذى لم يكن قد أكمل عامين من عمره بعد، وودعت أسرتى وحملت حقيبتى الوحيدة وذهبت إلى المطار.

اشتريت خرطوشة سجائر، ورحت أتجول فى صالة المطار ثم فجأة التقيت بصديق قديم.. أهلاً سعد، أهلاً عبد الوهاب، إلى أين؟ لندن.. وأنت؟ أثينا.. عمل لشركة القطاع العام التى تعمل بها؟ أية شركة؟.. لقد استقلت منها من زمان والآن أعمل بالاستيراد والتصدير وأكسب آلاف الجنيهات كل شهر، تسامرنا قليلاً ومر الوقت سريعًا. ثم نودى على ركاب الطائرة.. فودعت صديقى واتجهت إلى باب الخروج. فى الطابور كانت تقف أمامى فتاة أوروبية شعرها قصير جدًا وترتدى قميصًا رجاليًّا وشكلها رقيق وإن كان يقترب كثيرًا من شكل الولد الشقى.

كنت لم أجد وقتها تذكرة طيران على رحلة جوية مباشرة إلى لندن فحجزت مكانًا على الطائرة المسافرة إلى روما على أن أغير الطائرة فيها وأتوجه إلى لندن.

تسلم موظف شركة الطيران الإيطالية - وكان ثقيل الدم - جواز

سفر الولد الشقى وطلب فتح حقيبتها تنفيذًا لإجراءات الأمن، ثم أعطاها الجواز، وتحركت الفتاة فى طريقها إلى السيارة وفجأة خطر له أن يوجه لها أسخف سؤال يمكن أن يوجهه إلى فتاة، فقال لها وهو يبتسم ابتسامة سمجة كأنما تذكر سؤالاً هامًا: هيه.. آر يو بوى؟ أور جيرل؟ أى هل أنت ولد أم بنت؟

ولو أردت أن تعرف فى لحظات الفرق بين رقة الطبع والجلافة، تستطيع أن تعرفه بسرعة وأنت ترقب هذا المشهد السخيف، فقد أحمر وجه الفتاة وأحست بغضب هائل، لكنها لم تفعل شيئًا أكثر من أنها تجاهلت التساؤل السخيف وتوجهت إلى السيارة التى تحمل الركاب إلى الطائرة. وحين جاء دورى أمامه، كنت أحمل له بلا سابق معرفة كل كراهية الدنيا للإيلام الذى تسبب فيه بغير أن يدرى لهذه الفتاة.

دخلت الطائرة من باب المقدمة فمررت فى طريقى إلى مقعدى بوزير الثقافة وقتها جالسًا فى أول صف وغارقًا فى نوم هادىء، لو كان مستيقظًا لحييته فلقد كان نقيبا للصحفيين لكنه كان غارقًا فى النوم، والنوم فى الطائرة إن كنت لا تعرف من علامات الوجاهة! لأنه يعنى أنك معتاد على السفر بالطائرات وأنك مسئول كبير أو رجل أعمال مشغول بجلائل الأمور، لدرجة أنك تعتبر رحلة الطائرة أجازة ثمينة تنتهى بوصولك إلى المطار وخروجك لممارسة جلائل الأعمال مرة أخرى.

وفى مقعدى فى الطائرة أصغيت بقلب سعيد لصوت المضيفة التى طلبت ربط الأحزمة ثم تحركت الطائرة فى طريقها المرسوم. لست أذكر مرة ركبت فيها الطائرة ولم ينخلع فيها قلبى قليلاً لحظة إقلاعها وبالذات فى اللحظة التى تفارق فيها عجلات الطائرة أرض الممر. وأعتقد أنى لست وحدى فى هذا الإحساس، كذلك يندر أن أركب الطائرة ولا أتذكر صديقا صحفيا قديما يقيم الآن فى باريس. فقد سافرت معه مرة ضمن وفد يمثل نقابة الصحفيين إلى رومانيا قبيل زيارة رئيسها الأسبق شاوشيسكو لمصر سنة ٧٢. وركبنا طائرة الخطوط الرومانية وكانت وقتها طائرة متواضعة تعمل بالمراوح، فكانت فريسة سهلة طوال الرحلة للمطبات الهوائية، وكثُر إعلان الطوارىء وإضاءة لوحة ممنوع التدخين.

وكان هذا الصديق مزيجًا غريبًا من الجرأة والجسارة.. والخوف!! فقد اشترك فى عمليات اغتيال عديدة للجنود البريطانيين خلال معركة الكفاح ضد الاحتلال الإنجليزى، واشترك فى بعض عمليات المقاومة الفلسطينية فى الأردن سنة ١٩٦٨، ومع كل ذلك فهو من أكثر الناس خوفًا من ركوب الطائرات، فكان لدهشتى يرتجف حين تهتز الطائرة ويتمتم بآيات القرآن الكريم طوال الرحلة ويصفر وجهه.. وترتطم أسنانه من الرعب كلما أضيئت لوحة ممنوع التدخين وربط الأحزمة!

تناولت إفطار الطائرة وبدأت أغالب النوم، وصحوت والطائرة

تقترب من روما، ومضيفة الطائرة توزع علينا استمارات الجوازات لنملأها وتنبهت فى هذه اللحظة فقط إلى جارى الشاب وهو حائر كيف يملأ استمارته، واستجبت على الفور لنظراته المتوددة وعرضت عليه مساعدتى، وكتبت له بياناتها وتعارفنا، فعرفت أنه شاب مصرى حاصل على الثانوية العامة ويسافر إلى لندن ليبحث عن عمل هناك، وكانت لندن فى تلك السنوات مقصدًا لشباب كثيرين مثله.. يدخلونها بتأشيرة سياحية، وتنتهى مدة إقامتهم فيعملون بالأعمال الصغيرة كمهنة صبى المطبخ أى «كيتشين بوى» ويعيشون حياة خائفة تؤرقهم فيها مطاردة رجل البوليس لهم بعد انتهاء مدة الإقامة.

نزلت فى روما وعرفت موعد طائرة لندن وساعدت «كيتشين بوى» المستقبل فى إجراء الحجز إلى لندن، وركبت الطائرة.. وهو يطاردنى خوفًا من أن أتوه منه ويفقدنى فى الزحام. وفى الطائرة من روما إلى لندن أيضًا ساعدته فى ملء الاستمارات، ثم أسرَّ بمخاوفه من أن يفشل فى الحصول على تأشيرة دخول إلى لندن، فبريطانيا هى الدولة الوحيدة فى العالم - فى حدود معلوماتى - التى لا تعتبر تأشيرة الدخول التى تحصل عليها من سفارتها بأى مكان تأشيرة دخول نهائيًا لبلادها، وتخضعك حين تصل إلى مطار لندن لاستجواب جديد من ضابط الجوازات فى المطار يسألك خلاله عن غرضك من الزيارة ومدة الإقامة والنقود التى تحملها.. ويملك أن يلغى تأشيرة دخولك

ويحتجزك فى المطار حتى يعيدك إلى بلدك على الطائرة التالية. وقد قال لى «الكيتشين بوى» إنه يتمنى أن يحصل على تأشيرة دخول لمدة ٦ شهور ليتمكن خلالها من ترتيب أموره والبحث عن عمل، وأنه لم يزر لندن من قبل ولا يعرف كيف يجد طريقه بها. لكنه يحمل عنوان بعض أصدقائه الذين سبقوه إلى العمل فى لندن وسيحاول الوصول إليهم.

* اقتربت الطائرة من لندن وأطللتُ من النافذة لأرى صورتها لأول مرة، فكانت فعلاً صورة رائعة لو أردت أن أصورها لقلت لك إنك ترى من نافذة الطائرة سجادة جميلة مكونة من لونين فقط هما الأحمر والأخضر، الأخضر لون الحدائق والمزارع التى تنتشر فى كل مكان والأحمر هو لون سقوف البيوت الإنجليزية الشهيرة.

نزلت من الطائرة ومشيت فى ممرات المطار ومن خلفى رفيق السفر، واكتشفت أن هناك ثلاثة ممرات للخروج من الجوازات، ممر للمواطنين الإنجليز، وهؤلاء تستقبلهم ابتسامة ونظرة على الجواز وهو مغلق، ثم مع السلامة. وممر للقادمين من دول الكومنولث، وهؤلاء أيضًا لا تستغرق إجراءات جوازاتهم لحظات، ثم ممر ثالث مكتوب عليه «جوازات السفر الأخرى». أى جوازات أمثالنا من غير المحظوظين، وفيه وجدت طابورًا طويلاً، ينظمه رجل بوليس وفى انتظارهم ١٠ ضباط جوازات، يجلس كل منهم إلى مائدة عالية صغيرة تحمل رقمًا. . وكلما خلا واحد منهم من العمل، سمح رجل

البوليس لأول الطابور بالدخول ووجهه إلى رقم ضابط الجوازات الخالى.

قال لى رجل البوليس: رقم ٤، فاتجهت إليه ودفعت إليه جواز سفرى فتناوله بوجه غير معبر، ثم سألنى بلهجة رسمية:

- كم ستبقى من الوقت فى بريطانيا؟
- ٣ شهور.
- ماذا ستصنع فى بريطانيا؟
- سألتحق بدورة دراسية بمعهد طومسون للصحافة.

فختم جواز السفر ومد يده إلىَّ به فى صمت وانصرفت. خلال حوارى معه كنت ألمح رفيق السفر أمام ضابط الجوازات المجاور لى وأتخيل حاله وأدعو الله أن يوفقه فى محنته، وخرجت من دائرة الجوازات إلى خارج المطار فى لحظات، وعلى باب المطار التقيت «بالكيتشين بوى» ووجدته حزينًا فقال لى:

طلبت من ضابط الجوازات إقامة ٦ شهور فأعطانى إقامة لـ ٣ شهور فقط، فنظرت فى هذه اللحظة فقط إلى خاتم الجوازات على جواز سفرى، فوجدته قد أعطانى إقامة لـ ٦ شهور وتعجبت لأحوال الدنيا التى لا تعطى المحتاج أبدًا، فقد طلبت من ضابط الجوازات إقامة لمدة ٣ شهور فأعطانى ٦ شهور وطلب «الكيتشين بوى» ٦ شهور فاعطاه ثلاثة!

فى الطريق!

قبل أن أركب الطائرة كنت قد تلقيت رسالة من المعهد ترحب بى طالبًا فى دورته الدراسية الجديدة، وتقول كلماتها إنهم - أى إدارة المعهد - «يتطلعون» بشوق إلى موعد وصولى إلى إنجلترا ليسعدوا باشتراكى فى هذه الدراسة الجديدة، ولن تفهم مدى الأدب والرقة فى هذه الكلمات إلا إذا عرفت أن هذه الدراسة منحة دراسية مجانية يتلقى الصحفى فيها دراسة متقدمة عن الصحافة.. ويقيم خلالها فى بيت من بيوت الطلبة إقامة كاملة على نفقة المعهد، ويحصل خلالها على نفقات الانتقال، أو مبلغ بسيط كل أسبوع «للأشياء الصغيرة» كما يقول الإنجليز، ومع ذلك تقول رسالة مدير المعهد لى ولكل عضو بالطبع فى الدراسة الجديدة إنهم «يتطلعون بشوق لموعد وصولى».

وبعد هذه المقدمة المهذبة تحدد لى الرسالة بدقة شديدة كل الخطوات التى ينبغى على أن أتبعها لكى أصل إلى فندق «بلومزبرى» فى لندن حيث يتجمع الصحفيون القادمون من أنحاء مختلفة، تمهيدًا للتحرك إلى مدينة «كارديف» عاصمة مقاطعة ويلز حيث سنتلقى دراستنا.

قالت رسالة مدير المعهد إنى سأخرج من المطار فأجد سيارات الأتوبيس العامة على باب المطار مباشرة، وإنى أستطيع أن أركب إحدى هذه السيارات بتذكرة ثمنها كذا إلى محطة السكة الحديد الرئيسية فيكتوريا فى قلب لندن، وهناك أستطيع أن ألجأ إلى مكتب المجلس البريطانى للتعليم الذى يهتم بشئون الطلبة الوافدين.. وأطلب إليهم إرشادى إلى الفندق، فيقوم مندوب خاص بتوصيلى بسيارة أجرة على نفقة المجلس البريطانى إلى الفندق دون سابق معرفة لأنى غريب وقادم للدراسة فى بلاد شكسبير، كما أستطيع أيضًا أن أركب سيارة أجرة حددت لى الرسالة مقدمًا أجرها لتحملنى إلى الفندق.

وصلت إلى محطة فيكتوريا حوالى الساعة التاسعة مساء، وفجأة اكتشفت شيئًا غريبًا، تعجبت من نفسى كيف لم أتنبه له من بداية الأمر، اكتشفت أن ساعتى تقترب من التاسعة مساء والنهار الأبيض مازال يملأ سماء لندن.. فمتى يجىء الليل إذن! لم أعرف جوابًا عن سؤالى فى تلك اللحظة، لكنى عرفت فيما بعد أن نهار لندن فى مثل هذه الشهور من كل سنة ابتداء من أواخر أبريل وحتى أوائل الشتاء، يبدأ قرب الساعة الرابعة والنصف صباحًا ويمتد حتى قرب العاشرة مساء، وأنه مقابل هذا النهار الصريح الطويل، يأتى الشتاء فتنخفض ساعات النهار.. ويطول الليل حتى يبدأ حوالى الساعة الثالثة

والنصف بعد الظهر ويمتد حتى الصباح التالى، وأحيانًا لا يطلع نهائيـًّـا فى الشتاء فيحول الضباب دون تسرب الضوء إلى الشوارع وتخرج إلى الشارع فى الصباح، وتذهب إلى عملك فى عتمة شبيهة بنغبشة أول الليل فى مصر.

وصل الأتوبيس إلى محطة «فيكتوريا» وهى قلب منطقة مواصلات مدينة لندن، فلم أحاول أن أبحث عن مكتب مجلس التعليم البريطانى واتجهت إلى باب الخروج وركبت سيارة الأجرة.. ولاحظت بدهشة أن السائق العجوز قد نزل بتلقائية وحمل حقيبتى ووضعها فى مكان مخصص للحقائب بجوار مقعد السائق ثم عاد إلى مكانه، وقلت له اسم الفندق وعنوانه فأدار موتور السيارة وانطلق، ورحت أتفرج على لندن التى أراها لأول مرة فى حياتى من نوافذ سيارة الأجرة.. وتنبهت فجأة على صوت السائق يقول: «بلومز برى هوتيل» يا سيدى. ثم ينزل مرة أخرى ويحمل حقيبتى، وأسأله عن الأجرة فيجيب ١٤٠ قرشا(*) يا سيدى! تمامًا كما حددت لى تعليمات رسالة مدير المعهد التى تلقيتها فى القاهرة، وأدخل الفندق وأتجه إلى الأستقبال، وأقول لموظفة قسم الاستقبال كما حددت لى رسالة التعليمات: مساء الخير، إننى واحد من فريق معهد طومسون للصحافة، فتبتسم فى وجهى وتقول: تكرم بملء هذه الاستمارة،

(*) بأسعار عام ١٩٧٧.

وخلال انشغالى فى تسجيل بياناتها أسمع كلمات بالعربية تنطلق من جوارى وأختلس النظر، فأرى وجوها عربية تملأ الاستمارة وأدرك أنهم زملاء الدراسة الجدد.

وخلال وقوفى أمام قسم الاستقبال، جاء مندوب مجلس التعليم البريطانى بزميلين، سلمهما إلى موظفة الاستقبال، ثم طلب منها ورقة تفيد أنه جاء إليها بشابين عربيين قادمين للالتحاق بدراسة للصحافة وأخذها وانصرف.

إذ لو كانا سائحين قادمين للسياحة، وتأكد مندوب المجلس من ذلك من موظفة الفندق لطالبهما بأجر سيارة الأجرة فى الذهاب والعودة ولربما شكاهما إلى البوليس، فخدمات المجلس البريطانى للتعليم لطالبى العلم فقط لا لطالبى المتعة!

لم أكد أتم تسجيل بياناتى بالفندق حتى وجدت شخصًا يقترب منى ويسألنى بأدب: هل أنت أحد أعضاء فريق طومسون، فأجيب بالإيجاب فيمد يده يصافحنى ويقول: أنا إريك فيرث الأستاذ بالمعهد، وأنت حر إلى صباح الغد، تستطيع أن تتناول عشاءك فى مطعم الفندق ثم نلتقى فى البهو هنا فى الثامنة صباحًا، وسيتحرك الأتوبيس إلى كارديف فى الثامنة والنصف صباحًا، إلى اللقاء.

ها هى لندن إذن بعد طول اشتياق، لكنى أيضًا فى أشد شوق للنوم ولا مفر من تأجيل تعرفى بها إلى وقت آخر فاستسلمت للنوم.

وفى صباح اليوم التالى تجمعنا فى بهو الفندق بعد تناول الإفطار. وحانت ساعة الرحيل، فغادرنا الفندق لنركب سيارة أتوبيس كبيرة تقف أمام بابه. وكنا ٧ فقط ـ من أعضاء الدورة ومعنا أستاذ المعهد إيريك فيرث وسائق الأتوبيس.

وبدأ الأتوبيس رحلته إلى كارديف ماراً بشوارع لندن، فسار بنا تحت المطر وفى جو ضبابى غائم حوالى أربع ساعات. . وودعنا فى منتصف الطريق مستر فيرث الذى نزل فى مدينته الصغيرة على الطريق ليقضى أجازة السبت والأحد مع أمه فى بيتها الريفى، وواصلنا الرحلة وحدنا حتى قرية «بنارث» فى ضواحى كارديف حيث يقع «الإنترناشيونال هاوس» وهو البيت الذى سنقيم فيه طوال مدة الدراسة.

❊ ❊ ❊

فى البيت العالمى

توقف الأتوبيس أمام الإنترناشيونال هاوس والمطر الخفيف مازال يتساقط من السماء كأنه يحتفل بوصولنا، ووجدنا على باب المنزل شخصًا له لحية صغيرة، حيانا بحرارة وصافحنا وعرفنا بنفسه. . إنه رولاندز مدير المعهد جاء يستقبلنا بنفسه. دخلنا قاعة البيت وجاء مدير البيت مستر «فيلد» أو مستر «غيظ» كما أطلقنا عليه من اللحظة الأولى كترجمة حرفية لاسمه. وكانت قاعة الدور الأرضى من البيت مزدحمة بالرجال والنساء فى ملابس السهرة، ولم أفهم على الفور سر هذا الجمع حتى شاهدت بينهم عروسًا وعريسًا بملابس الزفاف الإنجليزية التقليدية، وفهمت أنها حفلة زفاف، تقام فى قاعة البيت مقابل إيجار رمزى، وأن العريس والعروس سيمضيان أيام العسل الأولى فى الإنترناشيونال هاوس، واعتبرنا ذلك فألا حسنًا!

وزع علينا مستر «غيظ» مفاتيح غرفنا ومفاتيح الباب الخارجى للبيت وأعلننا أن الباب الأمامى يغلق فى العاشرة مساء. . وأن الباب الخلفى يغلق فى العاشرة والربع، وأن من شاء أن يتأخر فى الخارج

إلى ما بعد ذلك له أن يعود فى أى وقت يشاء.. ويستعمل مفتاح الباب الخارجى، ويستطيع أن يشاهد برامج التليفزيون فى قاعة التليفزيون حتى نهاية الإرسال فى الواحدة صباحًا، لكنه ممنوع إضاءة صالة الدور الأرضى، ولعب تنس الطاولة بعد العاشرة مساء، فالبيت يقيم به طلبة مشغولون بالدراسة وينامون مبكرًا.. وانصرف مستر «فيلد» بعد أن صحبنا إلى غرفنا واجتمع بنا مستر رولاندز ليسأل عن مطالبنا ويبلغنا التعليمات:

اليوم وغدًا إجازة.. تستطيعون التجول فى «بنارث» والتمتع بساحل البحر الذى يطل عليه البيت.. إذا شكا أحدكم من أى مرض عليه فقط أن يبلغ مدير البيت مستر فيلد.. وإذا احتجتم إلى أى مساعدة اتصلوا به على الفور، سأحضر إليكم الساعة التاسعة صباح الاثنين لأصحبكم إلى مقر المعهد فى كارديف لنبدأ الدراسة، أرجو أن تستمتعوا بإقامتكم بيننا. وقد طلب منى مدير البيت أن ألفت نظركم إلى أن هذا البيت ترعاه الكنيسة، وأنه مخصص لإقامة طلبة الدراسات العليا وأنه بالتالى لا يريد أن «يرى» ـ وغمز بعينه ـ أية زجاجات داخل البيت! وضحك رولاندز وضحكنا معه وودعنا وانصرف كل منا إلى غرفته.. وأغلقت باب غرفتى على نفسى وقبل أن أفتح حقيبتى أزحت الستار عن النافذة العريضة ووقفت أتأمل الصورة البديعة التى رسمتها الطبيعة أمامى للبيوت الإنجليزية التقليدية

التى لا ترتفع أكثر من دورين بسقوفها المغطاة بالقرميد الأحمر والمنحدرة من الجانبين والخضرة فى كل مكان.. تماما كالصورة التى تخيلتها من قراءتى للروايات الإنجليزية ورسمتها فى خيالى للريف الإنجليزى الشهير.

بعد ساعات نزلت إلى الدور الأرضى لأتناول طعام العشاء فكانت أول تجربة لى فى التعامل مع الطعام البريطانى.. وآه من الطعام الإنجليزى الصميم، الذى يقدمه بيت صغير فى أعماق قرية صغيرة بجوار كارديف! فالسائح يستطيع دائمًا أن يستسيغ طعام الفنادق الكبرى فى أى مكان من العالم؛ لأنها تتعامل أساسا مع الغرباء فتراعى اختلاف الأذواق والطباع.. وتقدم نوعا من الطعام يمكن أن يسمى بالطعام العالمى الذى يقبله كل إنسان مهما كانت جنسيته. لكن المشكلة الحقيقية فى مطاعم القرى الصغيرة وبيوت الطلبة التى تمثل طبيعة المطبخ الإنجليزى!

أمضيت يومى السبت والأحد.. أرتب ملابسى.. وأوراقى فى غرفتى وأتجول فى «الإنترناشيونال هاوس» أتعرف على معالمه وأتطلع إلى رفاق الرحلة بقلب فُطِر على أن يبدأ الآخرين بالحب والثقة إلى أن يتلقى منهم الوخزة تلو الوخزة فيجفل من بعضهم، فإذا أجفل بعد طول صبر، كان من الصعب عليه أن يفتح أبوابه لنفس الأشخاص من جديد.

واكتشفت أن فى الصالة السفلى التى شهدت حفل الزفاف فى اليوم الأول مائدة لتنس الطاولة. . ورأيت عددا من الطلبة يخرجون من قاعة الطعام فيتسابقون للوصول إلى المائدة ليلعبوا. . فرحت أرقبهم وأنتظر الفرصة لمشاركتهم لعبهم فهذه هى الرياضة الوحيدة التى أعرفها. . وكلما أقترب منى طالب بادرته بالتحية فلاحظت بعد قليل أن الأوروبيين منهم والبريطانيين خاصة يجيبون بتحفظ، أما الأفارقة فيجيبون بحرارة. وتعلمت من ذلك ومن تجارب أخرى على مدى الشهور التى عشتها فى بريطانيا أن البريطانيين فى أعماقهم لايرحبون بالأجانب. . فاستنفر فىّ ذلك طبعى القديم الذى اكتسبته من تجارب الحياة، وهو أن أتحفظ مع من يبدو متحفظًا تجاه الآخرين وألا أسعى إلى صداقته أبدًا.

فى مساء اليوم الأول دق باب غرفتى زميل شاب. . ودعانى للخروج معه ومع عدد من زملاء الدورة إلى البلدة القريبة بنارث للتعرف عليها، فاستجبت سريعًا، وخرجنا نلتمس الطريق إلى بنارث التى تقع على بعد حوالى ٣ كيلو متوات من الإنترناشيونال هاوس. . وسرنا على الأقدام لمسافة نصف ساعة إلى أن وصلنا إليها. . وهى بلدة صغيرة جداً من ضواحى كارديف. وبعد جولة فى شوارعها التى لا تزيد عن ٤ أو ٥ شوارع نظيفة، اتخذنا طريقنا بناء على نصيحة بعض الزملاء الأفارقة من سكان الإنترناشيونال هاوس إلى مشرب أو

مقهى «الريلواى» أو السكة الحديد الذى يطل على محطة القطار فى بنارث.

وفى صباح يوم الاثنين جاءنا مستر رولاندز ليصطحب البعض منا فى سيارته إلى مقر المعهد فى كارديف.. وليشرح لمن لا تتسع لهم السيارة كيفية الوصول إلى هناك بالأتوبيس.. وكنت ممن لم تتسع لهم سيارته فاتجهت مع زملائى إلى الشارع المجاور ننتظر سيارة الأتوبيس التى جاءت فى موعدها بالضبط.. وبعد ٢٠ دقيقة كنا فى كارديف حيث وجدنا رولاندز وزملاءنا ينتظرونا فى المحطة الرئيسية للأتوبيس. قادنا رولاندر بنشاط وحيوية إلى مبنى إدارى يقع فى مواجهة المحطة.. وتبعناه متفائلين إلى قاعة فى الدور الثانى من المبنى، تضم ١٢ مكتبًا صغيرًا على شكل نصف دائرة تتجه إلى منصة، عليها مكبر صوت وجهاز عرض صغير للشرائح وخلفها سبورة خضراء اللون.

وبدأ يومنا الأول فى الدورة الدراسية للصحافة بمعهد طومسون. استغرقت الإجراءات الإدارية الساعات الأولى فوزع علينا رولاندز لوحات صغيرة تحمل اسم كل منا لوضعها على مكتبه خلال الدورة، ثم وزع علينا «معاطف» قديمة من ممتلكات المعهد؛ لكى نستخدمها خلال فترة الدورة ثم نعيدها إلى إدارة المعهد بعد انتهاء الدراسة.

وخلال الساعات الأولى من يومنا الأول، كانت سكرتيرة المعهد

قد قامت باستخراج اشتراكات لنا فى الأتوبيس بين كارديف وبنارث لمدة ٣ شهور ثم جاءت بالاشتراكات إلى رولاندز ووزعها علينا سعيدًا. . وأجاب عن كل أسئلتنا وأبدى استعداده لمساعدة كل من يحتاج إلى مساعدة فى أى مجال، وكان بين الدارسين ثلاثة من الزملاء العرب يستعدون لاستقدام أسرهم للإقامة معهم فى كارديف. . وطلبوا من رولاندز أن يساعدهم فى استئجار بيوت للإقامة فيها خلال هذه الفترة فوعدهم بالمساعدة، وتم ذلك فعلاً خلال أيام معدودة. . وانتهت إجراءات المعيشة واستقر كل شيء فى مكانه.

وآن لنا أن نبدأ المهمة التى جئنا من أجلها. . فبدأ رولاندز يلقى علينا أولى محاضراته عن الصحافة الإنجليزية. وبعد رولاندز تتابع المحاضرون، وعرفنا أن أساتذة المعهد الأساسيين ثلاثة هم رولاندز وهو «ويلشى» أى من أبناء مقاطعة ويلز، وبراون وهو إيرلندى، وإيريك فيرث وهو الإنجليزى الوحيد بينهم. كما عرفنا أن المعهد يستعين بمحاضرين من الخارج لإلقاء محاضرات فى فروع أخرى من علم الإعلام والاتصال.

واكتشفنا بذلك أن هيئة التدريس فى المعهد تضم ممثلين لمعظم مقاطعات بريطانيا العظمى. . إنجلترا وويلز وأيرلندا الشمالية فلم يكن ينقصنا إلا أستاذ من أسكتلندا ليكتمل تمثيل مقاطعات بريطانيا! وفى

الحقيقة فإن سلوك كل من الأساتذة الثلاثة كان يعكس إلى حد كبير الاختلافات بين هذه الشعوب فى الهيئة والشكل والمزاج النفسى!.. فرولاندز الويلزى أو الويلشى دافىء المشاعر مقبل على الحياة وعلى الأغراب وشكله «ويلشى» فعلاً بذقنه المدببة وتقاطيع وجهه المختلفة عن وجوه الإنجليز، وبراون الأيرلندى ملتهب المشاعر نوعا ما.. وسليط اللسان ومتأجج دائمًا بالسخط على كل شىء، وخاصة رولاندز الذى يسلقه بلسانه معنا ويتهمه بالبخل وسوء الإدارة!

أما إيرك فيرث الإنجليزى فهو متحفظ ويفضل أن يترك مسافة بينه وبين الدارسين فى الدورة، ويتصور أنه أستاذ وأن مستمعيه طلبة صغار.. ويتعامل معهم على هذا الأساس، إلى أن يصطدم ببعضهم ويذكره مدير المعهد بأنه يحاضر صحفيين محترفين لا طلبة صغار السن فيفيق إلى نفسه.. ويحاول أن يصلح خطأه وأن يكتسب ود الدارسين.

***

وبدأت الدراسة

انتظمت حياتنا فى البيت العالمى وفى الدراسة بمعهد طومسون.. واكتشفنا أن مستر «غيط» قد خصص لنا الدور الخامس من البيت فلايقيم به سوانا، واكتشفنا أيضًا أن فى الدور حمامين ومطبخا فتفاهمنا سريعًا على أن نخصص أحد الحمامين لاستعمال السيدات.. والآخر لنا، ولم يكن بين أعضاء هذه الدورة الدراسية سوى فتاتين فقط إحداهما سودانية، وتقيم معنا فى الدور نفسه، والأخرى مصرية تعمل بصحيفة الأخبار وتقيم فى الدور الثالث، فلم يكن هناك مفر من التنازل عن أحد الحمامين لاستعمال الصحفية السودانية وزائراتها من طالبات البيت. وكتبنا على ورقة بالإنجليزية «للسيدات فقط» ولصقناها على باب الحمام.

وأصبح يومى يبدأ بجرس الإيقاظ فى السابعة صباحًا فأنهض نشيطا على غير العادة، ثم يدوى جرس الإنذار مرة أخرى بعد نصف ساعة ليدعونا للإفطار وأنزل إلى الدور الأرضى.

وفى قاعة الإفطار أسحب صينية من المائدة الجانبية ثم أقف فى

الطابور إلى أن يأتى دورى أمام نافذة المطبخ لأتسلم أطباق الإفطار.. وكان دائمًا إفطارًا إنجليزيًّا تقليديًّا، طبق من البيض المقلى مع «جامبون» أو سجق، اكتشفت من اليوم الأول أنهما من لحم الخنزير فعزفت عنهما واكتفيت أحيانًا بالبيض والجبن الرومى والشاى، ولم يغب ذلك عن الفتاة التى تقدم لنا الطعام، فأصبحت تقدم لى البيض وحده بعد أيام من انتظامى فى الإقامة فى البيت.

وعقب الإفطار أعود إلى غرفتى لأرتدى ملابسى الثقيلة استعدادًا للخروج، ثم نتجمع أمام البيت لنمضى معًا إلى الشارع الجانبى لننتظر الأتوبيس، الذى كان يصل دائمًا فى التاسعة و١٠ دقائق خاليًا ونكون نحن أول ركابه، ثم يحملنا إلى كارديف لنصل إليها فى التاسعة و٢٥ دقيقة.. ونكتشف أن أمامنا ٢٠ دقيقة قبل أن تبدأ الدراسة فنمضيها غالبًا فى مقصف محطة الأتوبيس.. ثم ندخل قاعة الدراسة لتبدأ المحاضرة الأولى فى التاسعة و٤٥ دقيقة بالضبط!.

وخلال الدراسة كلها لم يتأخر الأتوبيس عن موعده يومًا.. ولم يتأخر موعد وصولنا إلى كارديف مرة.. ولم يتأخر موعد المحاضرة الأولى لأى سبب من الأسباب، كما لم تتغير بقية طقوس اليوم كله.. ففى العاشرة والنصف كنا نسمع صوت عجلات عربة تروللى صغيرة، تدفعها أمامها سيدة إنجليزية عجوز ترتدى معطفًا أبيض فوق ملابسها فتقدم القهوة إلى المحاضر أولاً.. ثم تطوف على مكاتبنا

لتسأل كلا منا: كيف تريد قهوتك باللبن أم سادة؟ ثم تقدم لنا القهوة. وبعد ٣ أو ٤ أيام لم تعد تسأل أحدًا وتقدم له ما يريد بالضبط، ثم تخرج بعد دقائق فلا نراها بعد ذلك إلا فى الساعة الثالثة والنصف، حين تعود بعربتها مرة أخرى لتقدم لنا الشاى.

كانت سيدة عجوزًا فوق الستين، ولكن حيويتها وإقبالها على الحياة وابتسامتها الدائمة كانت تلفت النظر.. وكنت أظنها إحدى موظفات المعهد إلى أن عرفت أنها ربة بيت تساعد نفسها وأسرتها بهذا العمل.. وأن المعهد متعاقد معها على تقديم القهوة والشاى فقط فى هذين الموعدين.. وأنها تؤدى المهمة نفسها لعدة شركات أخرى تعمل فى المبنى نفسه، ثم تعود إلى بيتها لترعى زوجها.

وكنا نستمع إلى ٣ محاضرات فى الصباح، ثم ننصرف إلى الغداء فى الثانية عشرة والنصف فنغادر المبنى الذى يقع فيه المعهد لندخل المبنى المجاور له، وهو مبنى الصحيفة المحلية فى كارديف، وتملكها أيضًا مؤسسة طومسون للصحافة، فنصعد إلى الدور الأخير من المبنى، ونتناول طعام الغداء فى مطعم الجريدة مع محررى الجريدة ورئيس تحريرها.

وبعد الغداء كانت أمامنا ساعة كاملة نستطيع أن نتحرك فيها بحرية إلى أن يأتى موعد استئناف الدراسة فى الساعة الثانية بعد الظهر، وكانت هذه الساعة هى متعتى الحقيقية التى أتجول خلالها فى شوارع

المدينة.. وأحتسى القهوة فى أحد محلاتها وأتفرج على الناس والشوارع والمحلات.. وبعد أيام قليلة كنت قد عرفت الشوارع المحيطة بالمعهد.. واخترت لنفسى مشربًا أتجه إليه كل يوم لأشرب الشاى وأقرأ الصحيفة المحلية أو كتابًا من الكتب التى حملتها معى، إلى أن يحين موعد الدراسة فأعود إلى قاعة الدراسة لنستمع إلى محاضرتين أخريين.

وكان رفيقى الذى يبدد وحشتى دائمًا فى هذه الساعة هو أدب نجيب محفوظ، ثم تنتهى الدراسة فى الرابعة و٤٥ دقيقة، ويحملنا الأتوبيس إلى البيت العالمى فى بنارث بعد الخامسة فنتناول طعام العشاء فى السادسة، وبعد العشاء نلعب تنس الطاولة بعض الوقت ونقرأ أوراق الدراسة، ثم نرتدى ملابسنا من جديد لنخرج إلى مشرب السكة الحديد.

***

موقعة كارديف

شهدت قاعة الدراسة بمعهد طومسون للصحافة فى كارديف حادثًا غريبًا لم تنمح ذكراه من مخيلتى حتى الآن، بل وكثيرًا ما تذكرته فعجبت من حالنا وفهمت بعض أسباب متاعبنا وتمزقنا! وقد وقع هذا الحادث الذى أسميته فيما بعد بـ«موقعة كارديف» فى أحد أيام الشهر الأول من دراستنا بالمعهد، فقد كانت المحاضرة مخصصة لدراسة فن المؤتمر الصحفى، وكيفية التعامل معه كصحفيين محترفين وأى نوع من الأسئلة يوجه للمسئول الذى يعقد مؤتمرًا. . إلخ.

وبعد دراسة نظرية، أعلن الأستاذ براون أنه سيجرى الآن تجربة عملية أمامنا لمؤتمر صحفى وهمى، ليرى كيف سنطبق فيه ما تعلمناه فى المحاضرة، واصطحبنا من قاعة الدرس إلى الصالون الصغير الملحق بقاعة الدراسة، ودعا طالبًا سودانيًّا يحضِّر للدكتوراه فى جامعة كارديف، ويقوم ببعض أعمال الترجمة للمعهد، وكان لسوء حظه فى مقر المعهد فى تلك اللحظة ليقدم بعض ترجماته، فرجاه براون أن يساعده فى عقد تجربة المؤتمر الصحفى، بأن يمثل دور

المسئول الذى نحاصره بأسئلتنا، وقبل طالب الدكتوراه عن طيب خاطر أن يقدم هذه الخدمة لنا، وجلس على مقعد فى الصالون، والتففنا حوله وأعلن بروان أن «مستر مجيد» أى الطالب السودانى هو الآن وزير خارجية (دولة عربية كان وزير خارجيتها يزور بريطانيا وقتها) وأن علينا أن نتخيل أننا فى انتظاره بقاعة كبار الزوار بمطار هيثرو حيث سيعقد لنا مؤتمرًا صحفيًّا قصيرًا.

وتأهبنا جميعًا للعمل وابتسم «وزير الخارجية» وقال بالإنجليزية: إنى على استعداد للإجابة عن أسئلتكم! فانهالت عليه أسئلتنا وهو يجيب برزانة وتعقل، ثم فجأة سأله أحدنا سؤالاً حول أحد نزاعاتنا العربية التى كانت مثارة فى ذلك الوقت، فأجاب مستر حفيظ بما رآه مناسبا للرد على السؤال، فإذا بالصحفى موجه السؤال ينسى أننا فى مؤتمر صحفى تمثيلى، وأننا نلعب أدوار صحفيين بريطانيين فى مطار لندن، ويندفع فى مناقشة عصبية يرد خلالها على إجابة المسئول «ويفندها» من وجهة نظر بلاده التى كانت طرفا فى هذا النزاع! وإذا بزميل ثان يشترك فى المناقشة مفندا رأى زميله الأول وموضحًا النّيات والأغراض التى يخفيها وراء رأيه! وإذا بزميل ثالث يقفز إلى حومة الوغى ليشد أزر زميله الأول، فلا يتقاعس زميل رابع عن أن يهب لنجدة الزميل الثانى فلم تلبث الدائرة أن اتسعت حتى شملتنا جميعًا.

وكنا أحد عشر دارسًا فاشتبكنا على الفور فى مشادات كلامية

ثنائية وثلاثية، ولم تسعف الإنجليزية بعضنا فركلها جانبًا، وانطلق يناقش ويبرهن ويحلل بالعربية، وفرقعت الشعارات فى سماء الغرفة الملبدة بسحابات الدخان وتبودلت الاتهامات، واحتقنت الوجوه، وكل ذلك ووزير الخارجية المهذب ينظر إلينا آسفًا. أما براون فلقد كان منظره وهو ينظر إلينا محاولاً أن يفهم ماذا جرى للمؤتمر الذى نظمه، شيئًا يستحق المشاهدة بالفعل! ثم تدخل أخيرًا لكى يعلن انتهاء المؤتمر.. أو انتهاء المهزلة بمعنى أصح، وصرف طالب الدكتوراه مشكورًا وعاد بنا إلى قاعة الدرس، وجلس على منصته يتفرس وجوهنا صامتًا.. ثم قال بهدوء بريطانى عريق: هل أجد من يستطيع أن يفسر لى بكلمات مختصرة ماذا جرى منذ لحظات؟ وصمتنا جميعًا ثم بعد لحظة صمت أخرى تطوعت لكى أفسر له بعض ما جرى متجنبًا الإشارة بالطبع إلى الكلمات الجارحة.. والاتهامات الرنانة التى لا أشك فى أنه لم يكن فى حاجة إلى مترجم لكى يترجمها له! وبعد أن سمع براون موجزًا قصيرًا لما جرى.. صمت قليلاً وتفرس وجوهنا مرة أخرى ثم تمتم قائلاً:

- انفعاليون.. أنتم قوم انفعاليون.. وهذه مصيبتكم! ثم أعلن انتهاء المحاضرة، وغادر القاعة ساخطًا!

وقد ظل هذا الحادث العجيب يحيرنى إلى أن قرأت تفسيرًا له فى كتاب للدكتور زكى نجيب محمود، اعتدت أن اقرأه من حين إلى آخر هو كتاب «تجديد الفكر العربى» وقد جاءت فيه هذه الفقرة:

ـ الفكرة عندنا ممزوجة بشخص صاحبها وكرامته، أرفضها ترفضه معها، وأقبلها تقبله معها، إنها شبيهة بالكلب فى قول الإنجليز حين يقولون: من أحبنى أحب كلبى، وهى قريبة من بعير المحب وناقة الحبيبة فى تصور الشاعر العربى القديم الذى قال أنه وحبيبته يتبادلان الحب، فلم يلبث أن امتد هذا الحب المتبادل ليشمل ناقتها وبعيره «أحبها وتحبنى ويحب ناقتها بعيرى»!

أما أن تُنزَع الفكرة عن شخص صاحبها لتوضع على أرض البحث ـ إذ البحث لا يفرش له بساط عندنا إلا فى عالم الأمثال السائرة ـ فيدور عليها النقاش إيجابًا وسلبًا وتصحيحًا وتكميلاً، دون أن يكون فى كل ذلك ما يمس صاحب الفكرة فى كرامته، حاكمًا كان صاحبها أم محكومًا، فذلك ليس من طباعنا ولا هو جزء من كياننا. فإذا عرفنا أن هذه الموضوعية شرط أساسى لأية خطوة يخطوها السائر نحو حياة العلم، فلك أن تستنتج من ذلك ما ترى!

فكدت بعد أن قرأت هذه الفقرة أشك فى أن زكى نجيب محمود كان يضعنا تحت مجهره العلمى ويرقب تصرفنا يوم «موقعة كارديف» وهو يكتب هذه الكلمات الصادقة!

***

غرام الرفيق

وقع المحظور.. ووقع الرفيق فى غرام بائعة السمك الصغيرة! والرفيق هو أحد أعضاء الدورة وينتمى إلى دولة عربية أدمنت إطلاق الشعارات وتصنيف العرب إلى «ثوريين» ورجعيين.. وتقدميين وتقهقريين.

وكان الرفيق عضوا خطيرا فى الحزب الحاكم، ويعمل فى ذلك الوقت مديرًا لتحرير جريدة الحزب اليومية. وقد سألته يومًا ماذا كنت تعمل قبل أن تتولى منصبك الخطير هذا، فأجاب ببساطة: كنت مديرًا لمحطة كهرباء!

اندهشت قليلاً لإمكانية أن يجمع إنسان بين «موهبة» إدارة محطة كهرباء وموهبة الصحافة التى ترفعه إلى منصب مدير تحرير جريدة يومية وسألته: أين درست الهندسة!

فقال: لم أدرس الهندسة ولكنى درست القانون! فسكت لكى لا «ألبخ» أكثر من ذلك!

لكننى فهمت أنك لا تحتاج إلى شهادة الهندسة فى بلاد الرفيق لكى تعين مديرًا لمحطة كهرباء ولا إلى شهادة الصحافة لكى تعين

مديراً لتحرير صحيفة، وإنما تحتاج فقط إلى بطاقة عضوية الحزب لكى تكون مديراً لأى شىء.

وقد جاء الرفيق إلى هذه الدورة ليتلقى بعض المعلومات عن الصحافة، تؤهله لأن يملأ فمه ببعض العبارات المهنية حين يتحدث عن الصحافة.. وهو لا يحتاج إلى أكثر من ذلك، ففمه منتفخ جاهز بالشعارات والكلمات الضخمة التى يطلقها فى وجهك إذا مال الحديث إلى السياسة. كما أنه شديد الصلف وثقيل الظل ويصر على أن يكون له فى عالم خفة الدم نصيب، فيزعجك برواية نكتة سخيفة، ثم يتطلع إليك بوقاحة منتظراً منك الضحك بصوت عال، والويل لك إن لم تفعل!

وخلال ترددنا شبه اليومى على مقهى السكة الحديد، اكتشفنا أن شلة الشباب الذين يمضون الأمسية فيه يذهبون بعد إغلاق المقهى إلى مكان آخر على شاطىء البحر يبعد حوالى كيلو مترين اسمه «الكومودور» ليواصلوا السهر فيه، وفى بعض الليالى التى ضقت فيها بالوحدة استجبت لاقتراح الزملاء بالذهاب معهم إلى «الكومودور»، وجلست إلى إحدى الموائد أرقب جموع الشباب.. وهى ترقص على أنغام الديسكو، ومع تكرار ظهورنا فى السكة الحديد والكومودور عرفنا بعض شباب بنارث وعرفونا، وكانوا جميعاً فى حدود العشرين وقد تعلموا فى مدرسة واحدة منذ الطفولة.

ودعوناهم مرارًا إلى تناول المرطبات على حسابنا فقبلوا الدعوة شاكرين، ولكن لم يفكر أحدهم فى أن يرد الدعوة لنا أبدًا!

وبين هؤلاء الشباب كانت «آن» لافتة للنظر بجمالها الهادىء وشعرها الطويل على خلاف بقية الفتيات.. وكانت ككل الفتيات والشبان الذين عرفناهم فى بنارث قد تخرجوا من «الهاى سكول» أى المدرسة الثانوية وخرجوا للعمل، وبعضهم كانوا ممن يسمونهم فى بريطانيا بـ«تاركى المدارس» أى ممن لم يكملوا الدراسة الثانوية وخرجوا للعمل، وهى ظاهرة موجودة فى بريطانيا وتمثل إحدى مشكلات الشباب هناك.

وطوال إقامتى فى بنارث لم أتعرف سواء فى مقهى «السكة الحديد» أو مقهى «الكومودور» على شاب واحد من خريجى الجامعة أو يدرس بها، بل كانوا جميعًا من حملة شهادة المدرسة الثانوية أو من «تاركيها».

وكانت آن هى إحدى هؤلاء الشباب، وتعمل بائعة سمك فى سوق كارديف. ولقد وقع المحظور ووقع الرفيق فى غرامها بلا أى تشجيع من جانبها.. وبدأ يطاردها بابتساماته ونظراته ودعواته لتناول المرطبات، وهى تعامله بأدب وتحفظ إلى أن عرف من زملائها تاريخ عيد ميلادها.. وانتظره بصبر ثم فاجأها يوم عيد ميلادها بخاتم من الذهب، دهشت له آن طويلاً وتجمع حولها الشباب يتفرجون على الخاتم.. ويتعجبون من هذا الشرقى الذى يهدى فتاة لا يكاد يعرفها

خاتمًا من الذهب! ورغم غرابة الموقف فقد قبلته آن وشكرته ونهضت لتنصرف مع صديقها! واستمرت فى تحفظها وتعاملها معه بأدب.

وبعد أسبوع بالضبط جاءته أختها لتقول له: أن عيد ميلادها سيأتى بعد يومين! ففهم الإشارة ومضى فى اليوم التالى صاغرًا إلى محل الجواهرجى ليشترى منه هدية ذهبية أخرى، ولم يتغير موقف آن منه سوى فى مجاملته فقط بالرد عليه من حين لآخر كلما خاطبها..

إلى أن جاء يوم وحياها كالعادة ففوجىء بها تجيبه بتحفظ أشد.. وسألها عما غيرها فصارحته بأن زميله الآخر، وهو من مواطنيه، قد أبلغها أن متزوج وأب لولدين، وأنها تحس بتأنيب ضمير لأنها شجعته على التعرف بها مما يهدد كيان أسرته.. وطلبت منه بأدب ألا يعود للحديث معها مرة أخرى! فكان ذلك بداية أزمة «حزبية» عنيفة بين الزميلين، فالزميل الذى أبلغها بذلك عضو بالحزب لكنه أقل مرتبة منه.. وقد فعل ما فعل بدافع غيرته من الرفيق وليس حرصًا على أسرته.. إذن هى الحرب! وإذن هى أزمة جديدة كان علينا أن نتدخل فيها، وأن نقرب بين الزميلين ونتنقل بينهما بالمساعى الحميدة ونسمع للأول وهو يعلن حسن نيته، ويؤكد أنه فعل ذلك خوفًا على زميله من الاندفاع وراء عواطفه.. ونسمع للآخر وهو يهدد بالكلمات الضخمة مؤكدًا سوء نية زميله ويهدد بالويل والثبور، حين يعودان معًا إلى أرض الوطن، وكانت حكاية من حكايات الدورة الدراسية التى لا تنسى!

ودورى.. يا دنيا!

زملاء الدورة الدراسية نماذج متباينة من البشر. وحين بدأنا الدراسة طلب منا مستر رولاندز أن يتحدث كل منا لمدة ١٠ دقائق عن نفسه وصحفيته وتجربته فى العمل الصحفى. . فكانت محنة لبعضنا لأن الحديث بالإنجليزية فيما يشبه المحاضرة يختلف عن سماع المحاضرات وفهمها. وكان أكثرنا يفهم الإنجليزية بأحسن مما يتحدث بها، ورغم ذلك فقد قبل بعضنا المخاطرة وتحدث عن نفسه بالإنجليزية وتراجع البعض فأذن له رولاندز فى الحديث بالعربية؛ لأن الهدف هو أن يعرف بعضنا الآخر أما هو فيعرف عنا ما يكفيه من ملف كل منا بالمعهد. وكانت هذه المحاضرات القصيرة فرصة لأن أتعرف على شخصيات زملاء الدورة الذين ساهمت تجاربى معهم فيما بعد فى أن أكوِّن عنهم صورة قريبة من الواقع.

كان أقرب زملاء الدورة إلى قلبى صحفى أردنى اسمه عونى. . شدنى إليه برقته ودماثة أخلاقه. . وبنفوره من تصرفات بعض محدثى الثراء من زملاء الدورة، وقد تقاربنا خلال الشهور التى عشناها فى بنارث وتزاملنا فى كل مراحلها إلى أن حملتنا سيارة

الأجرة، بعد نهاية الدورة إلى مطار هيثرو لأركب الطائرة إلى القاهرة وليركب هو طائرته إلى عمان.

وبعد فترة التطلع الأولى إلى التعرف على الحياة الجديدة من حولنا.. زهدنا فى الذهاب إلى مقهى السكة الحديد أو الكومودور، وأصبحنا نمضى معظم الأمسيات فى غرفتى حيث تنضم إليها «منى» وهى طالبة أردنية كانت تدرس الوثائق والمكتبات فى جامعة كارديف وتقيم بالبيت العالمى، و«سلوى» الصحفية المصرية التى تشاركنا الدورة والصحفية السودانية من زميلات الدورة وقد اكتسبنا خبرة ثمينة من تجاربنا فى البيت العالمى، وعرفنا أن عشاءه الميكروسكوبى مع ما يحتويه أحيانًا من أطباق غريبة على أذواقنا لا يصمد لأكثر من ساعتين نعانى بعدهما من قرصات الجوع حتى الصباح.. فأصبحنا نتبع نظاما غذائيا مكونًا من عشائين. عشاء أول فى مطعم البيت حيث نأكل ما تقبله شهيتنا منه، وعشاء ثان فى غرفة أحدنا بعد ساعتين نصنعه فى مطبخ الدور. وهكذا صمدنا للحياة فى بريطانيا العظمى!

وجالسين على الأرض فى غرفتى، أمضينا ليالٍ عديدة فى سمر يخفف عنا وحشة الغربة.. بعضنا يقرأ والبعض الآخر يلعب الشطرنج.. والبعض الثالث يصنع الشاى، والأغانى العربية تنبعث

باستمرار من جهاز التسجيل، وقد جمع بيننا الاغتراب فربط بين قلوبنا بروابط متينة.

وإلى هذه الجلسة كان ينضم إلينا فى أحيان كثيرة «بيير»، وهو شاب من كولومبيا بأمريكا الجنوبية يعمل أبوه مديرًا لبنك فى بلاده.. وقد ألحقه بوظيفة صغيرة فى فرع البنك فى كارديف ليجرب الحياة وحده ويحسن من مستوى لغته الإنجليزية.. وبعد شهور أرسل إليه شقيقته الصغرى «ماريا» لتعمل معه فى الفرع نفسه، ولتعيش التجربة نفسها فكانت تنضم إلى جلستنا أيضًا.. وتؤكد لنا فى البداية أنها لم تترك بلادها وتعبر المحيط إلى بريطانيا من أجل شقيقها، كما قد نتصور نحن بعقليتنا الشرقية، وإنما لتخوض تجربتها فى الحياة وتكسب خبرة جديدة، وبالفعل فلقد كان لكل منهما حياته المستقلة. فيقيم كل منهما فى غرفة من غرف البيت العالمى، ويعيش فى حدود مرتبه الصغير، وكان بيير أكثر إنفاقًا منها فينفد مرتبه، ويحاول الاقتراض منها فتقرضه مرة وترفض مرات.

وكذلك كان ينضم إلينا «مرتضى» وهو طبيب عمانى خفيف الروح، كان يدرس للزمالة الطبية فى جامعة كارديف، و«أحمد» السودانى وهو صيدلى كان يحضِّر للماجستير ومتخرج من جامعة جلاسجو فى أسكتلندا، وكان ينضم إلينا من حين إلى آخر زوار

آخرون من طلبة البيت العالمى، الذى كان بحق برج بابل بما يضمه من جنسيات مختلفة ولغات عديدة متباينة.

وبعد أن انتهت دراستنا وعدنا إلى بلادنا سمحت لى ظروفى كصحفى بأن ألتقى ببعضهم بعد سنوات، فكنت ذات يوم فى مسقط عاصمة عمان فى رحلة صحيفة فسمعت فى الإذاعة برنامجًا طبيا يجرى فيه المذيع حوارا مع مدير المستشفى الحكومى فى مسقط.. وسمعته يقدمه فإذا به مرتضى صديق سهرات البيت العالمى فى بنارث، فسعدت جدًا بهذا الاكتشاف وأسرعت أتصل بالمستشفى تليفونيا، وكان لنا لقاء حار استرجعنا فيه ذكريات بنارث الجميلة.

وذات يوم كنت فى الخرطوم مدعوًا لحضور المؤتمر العام للاتحاد الاشتراكى السودانى فى عام ١٩٨٣، فلمحت فى أبهاء المؤتمر آمال الصحفية السودانية التى شاركتنا الدورة. وكان لقاءا حارا وسألتها عن أحمد رفيق ليالينا فقالت لى: أنها لم تره فى الخرطوم أبدا بعدها. وذات يوم كنت فى عمان عاصمة الأردن فى رحلة صحفية أخرى، فسألت مدير كتب وكالة أنباء الشرق هناك عن «عونى» فاتضح أنه من أصدقائه، وأسرع يتصل به فجاء مسرعا وكان لقاء حارا تجددت فيه المشاعر الأخوية.

وذات مرة كنت فى عاصمة بلاد الرفيق فى رحلة صحفية أخرى

فخطر لى أن أسأل عن «الرفيقين» اللذين زاملانى فى الدورة، وإن لم يكونا من أصدقائى المقربين فيها فعرفت أن الرفيق الصغير يعمل ملحقا صحفيا فى إحدى سفارات بلاده، أما الرفيق الأكبر المتغطرس فقد سمعت أنه قد واصل صعوده فى الحزب وفى الحكومة. ثم فقد فجأة منصبه وانزوى فى الظل مغضوبا عليه، أما الجماهيريون الخمسة الذين كانوا من زملاء الدورة فلم أعرف عنهم شيئًا بعد ذلك لأنى لم أزر بلادهم أبدا.

❊ ❊ ❊

شخير.. فى الأوبرا

اصطحبنا مستر رولاندز إلى زيارة لفرقة الأوبرا ويلز فى كارديف وكانت تستعد لتقديم أوبرا «هبوط أورفيوس» بعد أيام، وقدمنا إلى ابنته التى تعمل فى ديكورات الفرقة. خلال هذه الزيارة عرفت أن الفرقة شركة كأى شركة أخرى من الشركات التجارية، مكونة من عدد محدود من الإداريين والفنيين والفنانين.. وأنها تنتج عروضها وتوزع عائدها على أعضاء الشركة بنسب مختلفة.

وحين عدنا إلى المعهد وعدنا رولاندز بأن يرتب لنا رحلة إلى مدينة «سوانسى» التى ستقدم فيها الفرقة عرضها. ولاحظت أنه قال: إنه يستطيع أن يصحب معه ٣ أشخاص فقط إلى هذه الرحلة، وسألنا عمن يرغب فى الذهاب فتقدمت «سلوى» لأنها ناقدة فنية مهتمة بالمسرح و«آمال» السودانية، وتقدمت أنا لأنى من هواة المسرح بكل فنونه، وفى يوم الافتتاح طلب منا رولاندز أن نلتقى به فى الساعة الخامسة مساء فى موقف الأتوبيس بكارديف ليصحبنا إلى هذه الرحلة، ففوجئنا بالرفيق الأصغر يطلب الذهاب معنا، وظهر التردد

على وجه رولاندز وأحسست بأنه واقع فى حرج لم أدرك كنهه، لكنه لم يتراجع وقال بعد لحظات: حسنا انتظرنى معهم فى الموعد!

وحيرنى تردد رولاندز وإحساسه بالحرج.. ولم أفهم سره إلا حين جاء فى الموعد فإذا به قادم فى سيارته التى لا تتسع إلا لخمسة أشخاص، وفهمت أنه كان ينوى أن يذهب إلى الأوبرا مع زوجته تلبية لدعوة ابنتهما.. وأنه أراد أن يتيح الفرصة لثلاثة منا معه لكن تطفل الرفيق الصغير أفسد عليه خطته.. ومنعه أدبه من أن يصارحنا بالموقف معه ومضت بنا سيارته إلى غايتها.

وفى سوانسى استقبلنا مندوب العلاقات العامة للشركة ورحب بنا، ثم قادنا إلى مقاعدنا فى قاعة الأوبرا وتهيأت للاستمتاع بالغناء والموسيقى، ثم بدأت أحداث الأوبرا وهى من التراث الفرنسى.. وكتب موسيقاها الموسيقار الشهير أوتنباخ فى عصر الإمبراطور نابليون الثالث، وتحكى عن أسطورة أورفيوس الذى هبط إلى العالم الأرضى ليبحث عن زوجته.. وعبث الآلهة به خلال رحلة بحثه عنها! وهى أوبرا ضاحكة جميلة استمتعنا بها كثيرا وضحكنا فيها كثيرا وآلهة العالم الأرضى تعبث بأورفيوس وتدبر له المكائد، وكانت ليلة جميلة لم يضايقنا فيها شىء إلا «شخير» الرفيق الأصغر الذى تطفل على الرحلة، وحرم رولاندز من اصطحاب زوجته إليها! فقد كان يتصور فيما يبدو أنها حفل منوعات.. وحين اكتشف الحقيقة راح فى سبات عميق!

الفاتنة الصغيرة!

بعد فترة من التجوال والتنقل بين مقاهى شارع الملكة «كوينز ستريت» فى كارديف، وقع اختيارى على محل صغير للشاى؛ لأمضى فيه فترة راحة الظهيرة من الثانية عشرة والنصف حتى قرب الثانية.

وفى اليوم الأول الذى جلست فيه بالمقهى، فوجئت بفتاة صغيرة آية في روعة الجمال والرشاقة والنضارة تقترب منى، فكدت أن أقف تحية لها واستعداداً لاستقبالها، لولا أننى رأيتها تضع فوق فستانها فوطة صغيرة، فأدركت أنها الساقية وأسفت لأن يمتهن الجمال فى مثل هذا العمل الشاق، فعمل الجرسون أو الساقى من أقسى الأعمال البشرية، والمجهود الذى يبذله فيه من يمارسه يزيد عن ضعف الجهد البشرى فى عمل آخر، ولأننى أدرك ذلك منذ وقت طويل فى حياتى فقد أعتدت دوماً أن أسخو على من يتولى خدمتى منهم، وأن أحسن معاملته وألا ألومه أبداً على خطأ أو تصرف، حتى ولو سكب كوب الشاى الساخن على ملابسى، فكيف يكون حالى مع هذه الهيفاء الفاتنة؟ شربت الشاى، وراقبت الساقية الصغيرة وهى تنتقل بخفة بين

الموائد، تحمل صينية تحتاج إلى رجال أشداء لحملها بغير أن تسقط منهم، وتذكرت وأنا فى جلستى هذه ما رواه أديبنا الكبير الراحل توفيق الحكيم فى كتابه «عصفور من الشـرق» مـن أنه قد وقع فى غرام قاطعة التذاكر بمسرح الأديون سوزى، فراح يقضى معظم النهار جالسًا فى مقهى مواجه للمسرح، بحيث يراها فى نافذة قطع التذاكر أو ينهض ويقترب من الشباك، ويتجمد أمامها مذهولاً لأكثر من نصف ساعة لا يرفع بصره عنها حتى لاحظت زميلة لها ذلك، ولفتت نظرها إلى هذا الشاب النحيل الغريب، الذى يذهل عن نفسه كلما وقف أمامها، وأصبحتا تتبادلان التعليقات الضاحكة على حاله ومظهره وجموده أمام شباك التذاكر، فإذا اقترب من شباك التذاكر قالت إحداهما إن «المجنون» قد جاء، وإذا تأخر عن موعده قالت الأخرى إن «المجنون» قد تأخر عن موعده اليوم فلعله مريض، فلا يلبث أن يأتى وهو مزكوم ويلف رأسه بكوفية صوفية!

ثم ضاق الحكيم بما يحمله من مشاعر، ودبر خطه تعفيه من بعض هذا العناء، فلازم المقهى حتى موعد انتهاء عمل فاتنته، ثم تبعها عن بعد فى الطريق وركب المترو نفسه الذى ركبته، ونزل فى المحطة التى غادرته فيها، وتتبعها حتى باب الفندق الصغير الذى تقيم فيه فى أحد أطراف المدينة، فما أن دخلته حتى دخل بعدها وتوجه إلى موظف

الفندق، وتحايل عليه حتى عرف منه رقم غرفة الآنسة التى صعدت قبل قليل، ثم طلب تأجير الغرفة التى تعلو غرفتها، وكانت بالصدفة خالية، فسعد بذلك كثيرًا وسرعان ما هجر مسكنه السابق ونقل ملابسه وكتبه وأوراقه إلى مستقره الجديد، وأصبحت قمة المتعة بالنسبة إليه إن ينهض مبكرًا فى الصباح، فيطل على نافذة فاتنته، ويستمتع برؤياها واقفة فى النافذة، تستنشق الهواء وتترنم ببعض الأغنيات الفرنسية الجميلة.

وبعد بضعة أيام فكر فى أن يقدم إليها هدية تعارف، ونصحه صديق أن يشترى لها حقيبة جلدية أو علبة من أدوات التجميل أو العطور أو باقة من الأزهار.. لكن هيهات أن يفكر الفنان الفيلسوف كما يفكر البشر العاديون، لقد توجه إلى سوق الطيور واشترى ببغاءً ناطقًا، وحمله فى قفصه وسار به فى الطريق، تلاحقه مجموعة كبيرة من القطط والكلاب، تريد التهام الطائر الجميل؛ حتى اضطر لأن يركب سيارة أجره قبل أن يفقد طائره.

وفى غرفته فى الفندق راح يلقّن الببغاء بعض العبارات والأسماء حتى أجادها، وفى الصباح أدلى بالقفص بحبل حتى أرساه على حافة نافذة فاتنته، وصحت الفاتنة من نومها واتجهت كعادتها إلى

النافذة لتستنشق الهواء البكر، فدهشت لما رأته، ثم رأت الحبل المدلى من أعلى فأدركت من أين جاء ورفعت عينيها إلى الطابق العلوى، فإذا بالفيلسوف الشاب يبتسم لها ويحييها تحية الصباح، فترد تحيته باسمة ثم سألته: لمن هذا؟

ـ لك

ـ لى.. شكرًا يا سيدى.. لكن لماذا؟

ـ إنها هدية بسيطة

ـ ما أجمل هذا الببغاء. ما اسمه؟

ـ محسن

ـ محسن؟

وما كادت تنطق بهذه الكلمة حتى صفّر الببغاء وصاح: أحبك.. أحبك.. أحبك!

استرجعت كل ذلك وأنا جالس أرقب الجرسونة الفاتنة، وقررت أن أدعو صديقى عونى لتناول الشاى معى فى اليوم التالى فى هذا المكان؛ ليرى اكتشافى المهم، ثم أقاطع المقهى بعد ذلك لكيلا ينتهى بى الحال إلى الوقوف كالمذهول أمام الفاتنة الصغيرة.

وبالفعل دعوت عونى فى اليوم التالى، ولم ألفت نظره مسبقًا إلى جمال الساقية الخارق، وتركته يكتشف المفاجأة بنفسه، فما أن اقتربت

منا حتى رأيت عونى مفتوح الفم مشدوهًا ويكاد يفقد النطق، وبعد انصرافها عنا صاح فىّ قائلاً: كيف تشتغل هذه جرسونه؟ تيجى عندنا فتصبح نجمة للسينما والمسرح والتليفزيون، أو يتزوجها مليونير عربى ويكسوها بالرياش الفاخرة ويغمرها بالمجوهرات والسيارات والعطور!

وتعجلت تناول الشاى لكيلا يتضاعف تأثير الساقية على عونى المذهول.. وأسرعت بالفرار!

* * *

كاباكا[1] الأول!

كان موضوع المحاضرة عن حق الشعوب فى معرفة الأخبار التى* تمس حياتها، فأثارت المحاضرة خواطرى وتأملاتى؛ إذ لم أفهم أبدا رغم سنوات عمرى الطويلة بالصحافة سر العقلية الغريبة التى ترى أن من حقها أن تحجب عن الناس خبرا يعرفه العالم كله إلا أصحاب الشأن فيه! وتحاول أن تتحكم فى آذان البشر، فتفتحها لكى تسمع ما يحبون لهم أن يسمعوه، وتغلقها دون مالا يحبون لهم أن يعرفوه. ولأنه ليس من المنطقى أن تحاول إجراء حوار مع عقلية فاشية.. فلابد من التخيل لمحاولة فهم المنطق الفاشى الذى يؤمن بحكمة التسلط على تفكير الآخرين وعقولهم. ولو أتيحت لك فرصة إجراء حوار مع مسئول من ذلك النوع.. وتوافرت لك أولاً الشجاعة الكافية لكى توجه إليه هذا السؤال «غير المهذب»، فإن الحوار غالبا سوف يجرى على الوجه التالى:

- يا سيادة الحاكم الفاشى لماذا ترى أن من حقك أن تتملك وحدك

(١) كاباكا الأول تعبير ابتكره الكاتب المسرحى الأستاذ على سالم فى إحدى مسرحياته للإشارة إلى الحاكم الأفريقى الفاشى، الذى يصل إلى مقعد الحكم بالانقلاب العسكرى.

كل وسائل الاتصال والتأثير فى الرأى العام، فلا تسمح لشعبك بأن يقرأ ويسمع إلا ما تريد لهم سماعه وقراءته؟

الجواب: نظرة قاسية تزلزلك فى مكانك، وفترة صمت طويلة تتحلل خلالها مفاصلك.

وبعد هذه النظرة القاتلة التى تلخص كل مشاعر الكراهية تجاه شخصك، يتأهب المسئول الفاشى للكلام فى النهاية، فيميل إلى الأمام قليل ثم يبتسم لك ابتسامة صفراء ويقول لك بصوت خفيض:

ـ هيه.. من وراؤك يا صديقى؟

ستلتفت فزعا لترى من يقف وراءك فلا تجد أحدا بالطبع فتجيب بحسن نية: لا أحد ورائى يا أفندم.

فيقول لك بدهاء، لا أقصد من وراءك الآن فى المكتب إنما أقصد من الذى دفعك لكى تسأل هذا السؤال.

فمن الطبائع الأساسية لأى مستبد فى أى عصر وفى أى مكان أن يفترض دائمًا فيك أنك لا يمكن أن تكون صادرا عن نفسك، فى أى تساؤل أو أى خاطرة تتعلق بموضوع الحريات.. ومن طبائعه أيضًا أن يعتبرها قضية مسلَّمًا بها أن أى متسائل عن الحريات هو بالتأكيد عميل لجماعة أو لهيئة أو لحزب سرى أو لمخابرات أجنبية، دفعته لكى يحرجه بهذا السؤال!

فإذا افترضنا جدلا أن هذا المسئول كان مختلفا قليلاً، ومن النوع الذى يحاول أن يفلسف استبداده ويضفى عليه طابعا مزيفا من الموضوعية، فإنه سيقول لك فى لهجة «عملية»: إننا نحجب بعض الأخبار عن الناس لكى لا تؤثر فى معنوياتهم، ولكى لا نتيح للأنظمة المعادية أن تنفذ أغراضها.. وتؤثر فى الرأى العام وتحقق مخططاتها التخريبية الإجرامية.

إن كنت مازلت بعد هذا الامتحان الرهيب قادرا على الاستمرار فى المناقشة، فإنك ستقول له: لكنك يا سيدى تقرر بذلك أن الناس فى بلادك قاصرون وعاجزون عن الإدراك والتمييز، وأنك أكثر وعيا منهم.. وهذا ضد منطق الأشياء. لأنك تستطيع أن تسمح بالأخبار التى يعرفها العالم، ومن حقك بعد ذلك أن تعلق عليها وتتصدى لما تتضمنه من تضليل أو أكاذيب، فتقنع الناس بالدعوة، لا بسياسة إغلاق المحابس كما تفعل أنت.. وسياسة إغلاق المحابس.. مهما حاول البعض فلسفتها لا تهدف إلى حماية الشعوب من التأثيرات الخارجية، وإنما إلى شىء واحد تضعه دائمًا أمام عينيها، وهو حماية النظام فقط لا غير.. وأنت فاهم وأنا فاهم!

إن لم يفقد المسئول الفاشى صبره فيسحب طبنجته من حزامه.. ويطلق منه رصاصة تنهى المناقشة النهاية الطبيعية لها، أو إن لم يأمر باستدعاء الحرس لإنهاء المناقشة بطريقة أخرى، فإنه سيقول لك غالبا:

أبدًا إننا لا نقصد من ذلك إلا حماية الجماهير من البلبلة!!

هل لاحظت هذه الكلمة «الظريفة»؟ وهل توقفت مرة لكى تفكر فى معناها أو تتأمل كم جرّت على شعوب العالم الثالث من مصائب؟ لقد كانت هذه الكلمة هى دائمًا مبرر الفاشستت فى كل مكان وزمان لحجب الحريات وحرمان الناس من حق التعبير عن أنفسهم.

ترى من أين جاءت هذه الكلمة العجيبة؟ ولماذا لا نسمعها أبدا فى المجتمعات الديمقراطية؟ أقترح أن يهتم المجمع اللغوى بدراسة أصل هذه الكلمة الغريبة، وأن يحاول أن يكشف عن العلاقة بينها وبين الميول الاستبدادية، لدى الكثير من المسئولين فى العالم الثالث، فلا شك أن فى اللغات الأفريقية والآسيوية والإسبانية المنتشرة فى بعض دول أمريكا الجنوبية كلمة مرادفة ومتماثلة فى النطق والموسيقى، والأثر السيىء لكلمة «البلبلة» الشهيرة هذه. والمؤكد أنها كلمة عالمية فطبائع الاستبداد أيضًا عالمية، وليس بعيدا لو أتيحت لى فرصة مقابلة «كاباكا» أفريقى يتحدث اللغة السواحلية، ووجهت إلي السؤال نفسه، لأجاب برزانة تتناسب مع أغطية زجاجات الكوكاكولا التى تنتشر فوق سترته العسكرية الرسمية. سناخا.. رخا.. فتاخا.. جلاخا بلبل!

وسوف تكون هذه الهلوسة ترجمة حرفية للعبارة الشهيرة نفسها.. أى خوفًا من بلبله!

ولو طرت فى اللحظة نفسها إلى أمريكا الجنوبية.. وقابلت جنرالا يحكم بلاده حكما بوليسيا لصالح شركة الفواكه الاحتكارية الأمريكية الشهيرة، ووجهت إليه السؤال نفسه لأجاب بالإسبانية، وفى تعقل يتناسب مع شرائط القصب التى تزين «بدلة حسب الله» التى يرتديها: فيرا.. ماديرا.. بوليرا بلبلة!

والجملة لا تحتاج إلى ترجمة!

ولو ركبت الباخرة إلى جزيرة مجهولة بالقرب من أستراليا، تقيم بها جماعات بشرية بدائية.. ووجهت السؤال نفسه، لزعيمها المستبد مستعينًا بترجمة ساحر الجزيرة، لأجاب الزعيم بهمهمة غير مفهومة وبلغة غير معروفة، لن أستطيع أن أفهمها ولكنى سوف أميز فى نهاية كلامه هذه الكلمة: بلبلة!

ألا ترى إذًا أنى محق فى كراهيتى لهذه الكلمة اللعينة؟

الحق أنى لا أكره هذه الكلمة وحدها، وإنما أكن كراهية العالم كله لأخواتها أيضًا.. فبلبلة لها أخوات ككان وأخواتها.. ومن أخوات بلبلة كلمات عديدة منها «التشكيك» و«التخريب» و«الموضوع شائك وحساس ولا داعٍ لإثارته».. إلخ.. وهى كلها كلمات سمعناها وتجرعناها صابرين، خلال تجربة العمل بالصحافة لسنوات طويلة.

تسأل مثلاً مسئولاً من الدرجة العاشرة سؤالا «هايفًا»، وأنت بصدد كتابة أو إعداد تحقيق صحفى للنشر، فيجيب بعد كلمات

المجاملة وشرب فنجان القهوة فى هيئة الحكماء: الموضوع شائك وحساس ولا داعٍ لإثارته!

والغريب أنك بعد مناقشة قصيرة معه.. وربما بعد استئذان الوزير المختص يتحول الموضوع الشائك بقدرة قادر إلى موضوع «بناء وإيجابى ومطلوب» ثم يتدفق المسئول فى الحديث.. إنك لا تلوم الأشخاص بالطبع، ولكنك تلوم دائمًا النظم التى تزرع الخوف فى نفوس المسئولين وتفقدهم القدرة على التمييز.. لكن هذه قصة أخرى لن ندخل فى تفاصيلها، لأن الموضوع بينى وبينك.. شائك وحساس ولا داعٍ لإثارته!!

***

المغامرون الخمسة!

كان بين زملاء الدورة الدراسية فى كارديف خمسة من أبناء بلد عربى بترولى معروف بشعاراته الثورية، ولأن بلدهم ثرى أو كان كذلك وقتها فقد أبت إدارة مؤسسة طومسون الصحفية، التى تنظم هذه الدورات الدراسية لصحفيى دول العالم الثالث، إلا أن تكون دراستهم مدفوعة الأجر، وتعاقد المستشار الثقافى بسفارة الدولة العربية مع المعهد على ذلك، وسدد قيمة الرسوم وهى كبيرة؛ خاصة إذا كانت لخمسة دارسين.

وبدأنا الدراسة فى كارديف وتوالت الأيام، ولم نر من الدارسين الخمسة سوى اثنين فقط، فلقد تجمع الكل فى لندن عند بداية الالتقاء وأمضوا ليلتهم فى فندق «بلومز برى»، وفى الصباح تحرك بنا الأتوبيس إلى كارديف، وليس من ركابه سوى اثنين فقط من الثوريين الخمسة، أما الثلاثة الآخرون فقد تخلفوا فى لندن ليستمتعوا بمغانيها وملاهيها لأطول فترة ممكنة.. وهكذا لم نعرف منهم سوى الدارسين اللذين بدآ معنا الدراسة من يومها الأول.. وكان أحدهما

متوسط العمر هادئ الطباع، أما الآخر واسمه «خ» فكان عاصفة لاتهدأ ولا هم له إلا السهر فى مشرب «الرايلواى» وتجرع الخمر بلاحساب، فى أى وقت من النهار والليل.

كان بعض الدارسين قد حمل معه من السوق الحرة بالمطار زجاجة من المشروبات الروحية، ربما ليستخدمها طوال فترة الدراسة، فإذا بالزميل «خ» وبعد أن أتى على زجاجتيه، يطوف بغرف الزملاء، الذين يعرف أن لديهم المطلوب، ويمضى مع كل منهم فى غرفته السهرة ويقوم عنه بمهمة تجرع كل محتويات زجاجته! وفى المساء التالى ينتقل إلى غرفة أخرى، ويكرر القصة نفسها حتى أتى وحده على جميع ما حملوه من مشروبات، واعدًا إياهم بأنه سيعوضهم عنها، وهو وعد لم يف به أبدًا وهيهات أن يفى به! ثم نفدت المشروبات من الدور الخامس الذى نقيم به.. وجاء الدور علىَّ لكى يقضى السهرة فى غرفتى، ويطلب منى إخراج «زجاجتى» لكى أقوم له بواجب الضيافة، لكنى صدمته بأننى لا أشرب ولم أشتر من السوق الحرة أية مشروبات. وذهل الشاب الثورى لإجابتى، وقال لى مندهشًا: لماذا لم تقل لى لكى أشترى بجواز سفرك زجاجتين أخريين؟

وفقدت السهرة حرارتها على الفور، ولم يلبث أن استأذن فى

الخروج قانطًا. أما زميله الطبيب «ع»، وقد أطلقنا عليه على الفور لقب الشيخ لعلامة الصلاة فى وجهه.. فقد كان يبدو فى الفترة الصباحية من الدراسة هادئًا وقورًا ومتزنًا، ويبدو فى الفترة المسائية متورد الوجه منتشيًا وأكثر استعدادًا للعدوانية من أى وقت سابق.

ولفت نظرى ذلك بعد عدة أيام، فأبديت هذه الملاحظة لزميلى عونى وسألته عن سرها.. فضحك وقال إن «الشيخ» ما أن ينتهى من الغداء سريعًا حتى يهرول إلى بار فى شارع كوينز ستريت ويتجرع فيه ٦ أو ٧ كؤوس من الويسكى، ويرجع فى هذه الحالة المعنوية العالية.. ففهمت أخيرًا سر النشوة والعدوانية، وتجنبت التعامل معه فى الفترة المسائية من الدراسة بكل وسيلة.

وبعد شهر من الدراسة، انضم إلى الثوريين الاثنين ثائر ثالث، جاء متأخرًا مصطحبًا زوجته وأولاده واستأجر بيتًا فى ضواحى كارديف وبدأ ينتظم فى حضور المحاضرات.. ولاحظت عليه الهدوء والوداعة وأنه يمضى وقت المحاضرة كله صامتًا يستمع باهتمام شديد.. وتوالت الأيام والمحاضرات، وذلك الثائر «م» على حاله نفسها من الصمت والهدوء.. شىء واحد كان يزعجنى بشدة منه، هو أنه كان يتجشأ بصوت عالٍ جدًا فى محاضرات الصباح، ودون أى محاولة من جانبه لكبح التجشوء، ثم يظل جالسًا فى هدوء بعد

ذلك كأنما لم يفعل شيئًا، وتكرر الأمر مرات عديدة حتى شكوت لأحد زملائه الثوريين، راجيًا منه لفت نظره إلى أن هذا الفعل معيب بشدة فى بريطانيا وأى مكان من العالم، فإذا به يجيبنى بلهجة الفاهم لكل الأمور قائلاً: أصل المرَة بتسوّى له عصيدة بالزيت الصبح!

ودهشت لما سمعت وسألته عن معناه، ففهمت أنه يقول لى إن «م» يتجشأ فى المحاضرات؛ لأن زوجته تعد له عصيدة بالزيت فى الصباح! وحين أدركت المعنى قلت له إنه لا يعنينى تفسير الظاهرة، وإنما علاجها وكررت عليه الرجاء بأن يلفت نظره إلى ذلك فوعد.. وجاء الصباح التالى، وترقبنا موعد التجشوء اليومى، فإذا بالمحاضرات تمضى هادئة بلاأية قنابل صوتيه.. وقلت لنفسى لقد كانت إذًا مجرد عادة لم يقاومها، وحين قاومها نجح فى كبحها.

شىء آخر مازلت أذكره من قصة هذا الشاب «م» حتى الآن فلقد أشرت من قبل إلى أنه كان يستغرق فى سماع المحاضرات حتى ليظل صامتًا لا ينبس ببنت شفة خلالها.. ولا يستفسر عن شىء ولا يناقش شيئًا، فأكبرت فيه هذا التجرد للعلم والدرس.

وبعد أن أمضى معنا شهرًا، وهو على هذه الحال من الاستماع الصامت للمحاضرات، قلت عفو الخاطر لأحد زملائه الثوريين: ألا

يعنّ لفلان هذا أن يسأل سؤالاً، أو يعلق أى تعليق على ما يسمعه فى المحاضرات كما نفعل نحن؟

فنظر إلىّ باسمًا، ثم قال: إنه لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية، ولا يفهم ما يسمعه ولا ما يقال أمامه.. ووقت المحاضرات بالنسبة إليه عذاب كعذاب الجحيم، ولكنه يتحمله صابرًا!

بعد ٤٥ يومًا من الدراسة رأينا الوجه الثورى الرابع، وكان شابًا نحيلاً وسيمًا يدعى «ع»، وقد أقام فى لندن مستأجرًا شقة صغيرة طوال الدراسة، ويكتفى بأن يطل علينا من حين إلى آخر ليمضى معنا يومين، يحضر خلالهما المحاضرات، ويحاول إثبات انتظامه الشكلى فى الدراسة، ثم يسرع بالفرار إلى لندن ومغانيها مرة أخرى.

تذكرت ذات مرة وأنا أرقب أحوال «ع» هذا الذى لا يشغله فى الحياة سوى ملاحقة الفتيات وتجرع الويسكى، العبارة الحكيمة التى قالها فيلسوف الجيل لطفى السيد لبعض المبعوثين المصريين فى باريس، فى أوائل هذا القرن، وهى: ما كل باريس لهو! أى إن فى باريس من اللهو والمغانى والجمال والغناء الكثير، لكن فيها إلى جوار كل ذلك العلم والأدب والفكر والفن الراقى والسلوك المتحضر، وعلى من يوفد إلى باريس للدراسة ألا تشغله ملاهى باريس عن مواطن

عظمتها الأخرى، وهى نصيحة لم يستمع إليها أبدًا رابع المغامرين الخسمة خلال دورتنا الدراسية.

بعد شهرين من الدراسة، فوجئنا ونحن فى قاعة المحاضرات بشاب قصير يرتدى بنطلونًا من الجينز، وشعره منكوش على طريقة التسريحة التى كانت معروفه وقتها باسم «كانيش»، يدخل علينا ويصافحنا فردًا فردًا بحرارة.. ورحبنا به وتساءلنا من هو فقال لنا أحد الثوريين الخمسة... إنه الزميل الخامس فى الدورة الدراسية، وإنه أمضى الشهرين الماضيين من الدراسة فى لندن، رافضًا أن يتحرك منها ولو كان دون ذلك خرط القتاد! وسألنا: هل جاء الآن لكى يقضى معنا الشهر الباقى من الدراسة؟ فقيل لنا: لا لقد جاء «ليرى» قاعة المحاضرات وأساتذة الدورة وزملاء الدراسة؛ لكى يستطيع أن يقول إنه قد جاء إلى كارديف وحضر بعض المحاضرات.. أما بعد ذلك فلسوف يسافر خلال أيام إلى تايلاند، ويمضى هناك بقية الفترة ويرجع معنا من لندن إلى بلادنا.

وذهلنا: تايلاند؟ وما حاجته إلى تايلاند.. وقد جاء لدراسة الصحافة فى بريطانيا.. فقال أحدهم غامزًا بعينه: لأنه قد سمع من أصدقاء له أن اللهو هناك سهل ورخيص وبربع الثمن!

ولله فى خلقه شئون!

البطاقة المسحورة!

جاءنا زائر من الإذاعة البريطانية ليلقى علينا محاضرة فى علم الاتصال، وليعرفنا بنظام العمل فى الإذاعة البريطانية الشهيرة. كان الزائر هو رئيس القسم العربى بالإذاعة مستر «هافيظ» كما قدمه لنا رولاندز. وألقى علينا الأستاذ عبد الحفيظ محاضرته باللغة العربية ثم اختار منا ٤ أعضاء، كنت من بينهم ليدير معنا حوارا عن الدورة الدراسية يذاع فى البرنامج العربى من الإذاعة البريطانية، فذهبنا جميعًا إلى مبنى الإذاعة المحلية فى كارديف.. ودخلنا الأستديو معه ووقف بقية الزملاء مع رولاندز يرقبوننا من غرفة التسجيل الزجاجية.

كان عبد الحفيظ فلسطينيا حاصلا على الجنسية البريطانية، وقد روى لنا من بين ما روى أنه حصل على الجنسية البريطانية «بالمراسلة»؛ إذ إنك فى بريطانيا تستطيع أن تجرى كل معاملاتك مع الأجهزة الحكومية بالبريد حتى فى أعقد المسائل كمسألة الحصول على الجنسية، فالمسألة أوراق إذا كانت مستوفاة فلا شىء يمنع حصولك على ما تريد، ولا شىء يضطرك إلى الذهاب إلى مكاتب الإدارة الحكومية.

وهكذا كتب إلى إدارة الهجرة هناك يطلب الحصول على الجنسية فأرسلت إليه نموذجًا لملء بياناته، فأعده وأرسله إليها مع جواز سفره فتمت دراسة الطلب فى المدة المحددة. . وتم منحه الجنسية وأعيد إليه جواز سفره حاملا كل التأشيرات المطلوبة، «وكله بالبريد» كما قلنا لأنفسنا متعجبين!

وبمناسبة البريد فقد تذكرت واقعة طريفة كان بطلها الرفيق إياه، فقد كتب الرفيق بطاقة بريدية لأحد أصدقائه فى بلده. . وألقاها فى الصباح فى صندوق البريد المجاور لمحطة الأتوبيس التى نركب منها فى الصباح إلى كارديف، وذهبنا جميعًا إلى المعهد ثم عدنا فى الخامسة مساء فوجد الرفيق البطاقة، تنتظره فى البيت العالمى! ووجد طابعها مختوما بخاتم البريد البريطانى فلم يفهم لماذا لم تسافر إلى بلاده. . وظن أن قيمة الطوابع أقل مما ينبغى فزاد من عددها ووضع البطاقة صباح اليوم التالى فى الصندوق نفسه، وأمضى يومه فى المعهد. . ثم عدنا إلى البيت العالمى فوجد البطاقة تنتظره فيه! واستنكف فيما يبدو أن يسأل أحدا عن سبب ذلك فمزق البطاقة، وكتب بطاقة جديدة وضع عليها طوابع كافية. . ولم يشأ أن يلقيها فى صندوق البريد المجاور للبيت العالمى، وإنما حملها معه إلى كارديف، وألقاها فى أحد صناديق البريد هناك، وذهب إلى المعهد ثم عاد مطمئنا فى المساء إلى البيت العالمى، فوجد البطاقة تنتظره هناك

منذ الظهيرة! ففقد صبره أخيراً، وتخلى عن حرصه على ألا يعرف أحد سر البطاقة وصاح منفجرا: إيش ها الحكاية.. الصبح ألقى البطاقة فى الصندوق.. والعصر أجدها فى الإنترناشيونال هاوس! تناولنا البطاقة منه وتناقلناها متعجبين حتى اكتشفنا أخيرا سرها.. فالرفيق قد كتب عليها بضع كلمات باللغة العربية لصديقه.. ثم أتبعها بعنوانه هو فى البيت العالمى باللغة الإنجليزية بخط كبير بارز فى حين كتب اسم بلاده على رأس البطاقة بالإنجليزية بخط صغير جداً. وكلما وصلت البطاقة إلى مكتب التوزيع.. قرأ الموظف عنوان البيت العالمى فى بنارث البارز فوق البطاقة، ولم يلتفت إلى الكلمة الصغيرة فى طرف البطاقة التى تشير إلى اسم بلاد الرفيق المرسلة إليه، فيظن أن البطاقة موجهة إلى البيت العالمى ويعيدها إليه!

ضحكنا من قصة البطاقة المسحورة طويلاً، ونصحناه بألا يأمن لأحد عليها واقترحنا عليه أن يسافر إلى لندن، ويسلمها بنفسه إلى سفير بلاده ليرسلها إلى صديقه بالحقيبة الدبلوماسية خوفًا من أن تعود إليه مرة أخرى.. واقترح بعضنا عليه أن يخطف رجله بالطائرة إلى بلاده ليلقى البطاقة فى أقرب صندوق بريد فى عاصمة بلاده ويعود بالطائرة نفسها مسرعا قبل أن ترتد إليه كالسهم!

* * *

اليوبيل الناقص!

شاهدت موكب الملكة إليزابيث التاريخى، خلال الاحتفال بمرور ٢٥ عاما على تتويجها ملكة لبريطانيا فى عام ١٩٧٧.

فلقد كانت بريطانيا تحتفل خلال دراستنا فى الدورة باليوبيل الفضى للملكة، وكانت الاستعدادات للاحتفال على قدم وساق قبل موعده بشهرين، وصور الملكة تطبع على كل شىء على الأكواب الفخارية التى يشرب الإنجليز فيها الشاى، وعلى الأطباق الموشاة من الصينى الفاخر، وفى كل مكان تجد شيئًا تشتريه يحمل صورة الملكة وتاريخ تتويجها وتاريخ الاحتفال بمرور ٢٥ سنة عليه. وحين جاء موعد الاحتفال منحنا المعهد أجازة لمدة ٥ أيام فحملت حقيبتى.. وركبت القطار من كارديف إلى لندن لأمضى فيها العطلة وأشهد الاحتفالات.

وخلال ليالى الاحتفال كان التليفزيون البريطانى يذيع كل ليلة برنامجا حافلا من خيمة، أقيمت خصيصًا فى هذه المناسبة لتقديم فقرات الاحتفال وكانت فقرات مثيرة ومبتكرة، وشارك فيها نجوم

عالميون. أما مذيعها فكان أشهر مقدم برامج فى بريطانيا، ومن بين هذه الفقرات مازلت أذكر فقرة طريفة أعلن خلالها مقدم البرنامج أنه سيستضيف الآن ولى عهد بريطانيا الأمير تشارلز ليجرى معه حديثا عن أمه الملكة فضجت القاعة بالتصفيق.. وعزفت الموسيقى السلام البريطانى، ثم دخل الضيف فإذا به ممثل كوميدى بريطانى مشهور بتقليد الشخصيات، فتضاعف التصفيق والتهليل وانطلقت الضحكات استعدادا للاستمتاع بتقليده للأمير شارل، وجلس هو على مقعده وبدأ يجيب عن أسئلة المذيع مقلدا صوت الأمير.. ولهجته وطريقته فى الكلام وتلعثمه وحركات يديه وجمهور القاعة ومشاهدو التليفزيون فى البيوت يضجون بالضحك استمتاعا، وكان آخر سؤال فى هذه الفقرة الهزلية وجهه له المذيع هو: لماذا لا تبقى معنا إلى آخر السهرة لتشاهد معنا بقية الفقرات؟ وكان جواب «الأمير» هو: لأستطيع لأنى لم استأذن «ماما» فى السهر، وليس معى مفتاح قصر باكنجهام لأفتح لنفسى إذا عدت متأخرا! وضحكت بريطانيا سعيدة!

وفى يوم الاحتفال خرج موكب الملكة اليزابيث من قصر باكنجهام فى الصباح، يتكون من عدة مركبات أثرية تجرها الخيول وتتقدمها المركبة التى تقل الملكة، وهى مركبة عمرها لا يقل عن ٢٠٠ سنة، وقد ركبها من قبل كل ملوك وملكات بريطانيا فى احتفالات التتويج والمناسبات الرسمية، وسار الموكب فى طريق محدد من قصر باكنجهام

إلى مقر البرلمان البريطانى حيث جرت مراسم الاحتفال، ثم عاد من الطريق نفسه إلى القصر. وعلى الجانبين كانت تقف جموع البريطانيين والسياح لمشاهدة الموكب مبهورين بتقاليده ومراسمه.

وقد شاهدت موكب الملكة خلال رحلة العودة، فلفت نظرى أنه رغم وجود أعداد كبيرة من الشباب البريطانى والسياح على الجانبين.. إلا أنهم فى النهاية لا يصلون بأى حال من الأحوال إلى عُشر عدد المتجمعين فى ساحة أى مولد صغير، لأى قطب صوفى فى قرية من قرى مصر، فليس هناك زحام بالمعنى الذى نعرفه. والبوليس البريطانى يسمح للناس بعبور الطريق من حين لآخر، وحين اقترب موكب الملكة لم يزد عن أن قال لمن يقفون فى نهر الطريق: خلف الحاجز من فضلكم! فأخلوا الطريق ثم مرت الملكة أمامنا ترتدى تاجها وترفع يدها، وكلما مرت أمام مجموعة من الشباب صاحوا بغير انفعال كبير: هيه.. فتلوح لهم بيدها باسمة، وينتهى الأمر!

ثم مرت بعدها مركبة الملكة الأم وهى أم الملكة إليزابيث، وكانت شخصية محبوبة جداً فى بريطانيا، ثم مركبات الأميرات وأزواجهن وبقية أعضاء الأسرة المالكة. أما ولى العهد الأمير تشارلز، فكان يمتطى صهوة جواد بملابس الحرس الملكى الشهيرة، ويتقدم مركبة الملكة إليزابيث مع فرسان الحرس.

أمضيت ساعتين واقفا مع صديق مصرى وأسرته، إلى أن مر

الموكب الملكى وبدأ المشاهدون ينصرفون.. وبدأنا نحن أيضًا ننصرف فى هدوء، فقفزت إلى ذهنى فجأة صورة زحام الاحتفالات العامة فى بلادنا، وذكريات طفولتى فى مدينة دسوق التى يخنقها الزحام كل سنة، ليلة الاحتفال بالليلة الختامية لمولد سيدى إبراهيم الدسوقى، وتذكرت كيف كدت وأنا طفل صغير أن أهلك تحت أقدام الرجال فى هذا الزحام، «وفرسان» مركز الشرطة يفسحون الطريق لموكب سعادة مدير المديرية الذى شرف المكان. وبالطريقة الوحيدة التى يفهمونها لإفساح الطريق وهى الضرب بعصىٍّ الخيرزان، عمالاً على بطال، فى جموع الفلاحين فتهرول مفزوعه مخلية الطريق لموكب البيه المدير وتطأ فى طريقها كل من يسقط على الأرض، وقد كنت أنا ذات مرة أحد هؤلاء الذين جرفهم زحام الحشر.

استرجعت هذه الصورة القديمة إلى مخيلتى فجأة، وقلت لصديقى ونحن فى طريقنا إلى بيته: هذا الاحتفال ينقصه شىء جوهرى لاتصلح الاحتفالات العامة إلا به!

فسألنى ببراءة: ما هو؟

فقلت: الضرب بالعصى!

* * *

.. ومهما!

دخلت قاعة الدراسة ذلك الصباح فأحسست بأن شيئًا ثقيلاً يخيم على جوها! وقبل أن أصل إلى مكتبى نادانى أحد الزملاء العرب وقال لى: إنه سمع من الإذاعة المصرية فى الصباح الباكر أن رئيس تحرير الأهرام ومدير تحريره قد تعرضا لحادث سيارة فى الطريق الصحراوى بين القاهرة والإسكندرية، وأن مدير التحرير وسائق السيارة لقيا مصرعهما!

يا إلهى إنه الرجل الباسم المهذب الذى أرسلنى إلى هذه الدورة وكان ينتظرنى لأحدثه عن تجربتى فيها.. وأحسست بصدرى يضيق وبالرغبة فى الاختلاء بنفسى، فغادرت القاعة وعند مدخلها التقيت ببراون داخلا فاعتذرت له عن أنصرافى فنظر إلى بعطف، وقال لى: لا بأس تجول قليلا فى شوارع كارديف إلى أن تهدأ. وكان قد قرأ الخبر فى صحيفة «الديلى تلجراف» ويعرف صلتى الشخصية بالراحل محمود عبد العزيز، ويعرفه أيضًا لأنه كان أحد الدراسين السابقين بالمعهد وصديقا حميمًا لمديره رولاندز.

خرجت إلى الشارع.. وتجولت قليلا ثم اشتريت ورقا وخطابا من

أحد المحلات، ودخلت مشرب شاى فى شارع سانت مارى.. وجلست أكتب رسالة لزوجتى، مازلت أذكر أول سطورها: «اليوم تلقيت نبأ وفاة المرحوم محمود عبد العزيز الرجل الذى أرسلنى إلى هنا» وأحسست بألم شديد وصاحبتنى صورته، وذكريات تعاملى معه خلال فترة عمله فى الأهرام طوال يومى، فقد كان إنسانا مهذبا بكل معنى الكلمة. ومن هؤلاء الأشخاص الذين يشق عليهم أن يتفوهوا بكلمة نابية أو كلمة خارجة عن المألوف، وكان رقيقا مع الجميع وأمينا معهم.. وقد تولى منصب مدير التحرير فى الأهرام فى فترة عصيبة سياسيًّا وصحفيًّا فلعب دورًا توفيقيًّا مهما بين جميع الأطراف التى كانت تتصارع فى ذلك الوقت للسيطرة على الأهرام.. ولم يشعر الكثيرون بأهمية هذا الدور، إلا بعد أن اختاره الله إلى جواره وغاب عن موقعه الهام فى الأهرام.

وأنا أجتر ذكرياتى معه، تذكرت هذين البيتين للشاعر المرحوم محمود حسن إسماعيل، كان المرحوم الأديب عباس الأسوانى يرويهما دائمًا ويترنم بهما لبلاغة كلمة محددة جاءت فيهما وإعجازها أما البيتان فهما:

لا أرفض الموت لكنى أسائله.. هل ذقت ما أنت بالإنسان فاعله.

تأتى بلا شبح تسقى بلا قدح.. وكل باب ـ ومهما ـ أنت داخله.

نعم لا نرفض الموت.. ومن يملك أن يرفضه، لكننا نسائله فعلا مع محمود حسن اسماعيل: هل ذقت ما أنت بالإنسان فاعله؟

إننى لا أريد أن أجتر أحزانى على الورق فليس هنا مجالها. . لكننى أقول فقط إنى كثيرًا ما رددت هذين البيتين فى مناسبات أليمة حين فقدت بعد هذه الدورة بسنوات شقيقى الأصغر، وكان شهما كريما مطبوعا على حب الناس ومساعدة الآخرين ولا يحمل ضغينة لأحد، ومن هؤلاء الأشخاص القلائل الذين لا يمكن أن يعرفهم أحد بغير أن يحمل لهم مشاعر الحب والصداقة والوفاء. وقد فقدته وأنا غائب عن مصر فى رحلة اغتراب أخرى، فلم أودعه قبل الرحيل، رحمه الله.

ثم رددتهما أيضًا حين فقدت شيئًا جوهريـًّـا من نفسى، واختار الله إلى جواره شقيقى الأكبر ـ رحمه الله ـ وكان توءم حياتى وقرينى فى ملاعب الطفولة وزميل دراستى ورفيق صباى وصديق عمرى، وقد شاءت لى الأقدار الحزينة أن ألتصق به فى لحظاته الأخيرة وهو ينسحب بهدوء من عالمنا الردىء إلى العالم الأفضل، وقلبى ينسحب معه إلى عالم سحيق ـ رحمه الله ـ وبينهما فقدت الكثير والكثير من قلبى ومن حياتى ومن وجدانى مع كل قريب وصديق، مضى إلى النهاية المحتومة. . ولن أجتر مرة أخرى أحزانى لكنى سأقول فقط إن العبارة التى كان يطرب لها المرحوم عباس الأسوانى فى هذين البيتين هى: «ومهما» وهى عبارة عجيبة تحمل فى حروفها الخمسة كل جبروت الموت وحتميته وتغنى عن تأليف كتاب عن أنه لا شىء يحول

دون وقوع القضاء حين يحين. وكان عباس الأسوانى يردد ذلك مؤكدا عبقرية محمود حسن إسماعيل، ومن عجب أنه رحل عن الحياة فجأة وهو فى الثانية والخمسين من العمر، وفى قمة توهجه الأدبى والإنسانى.. وبعد عودتى بأيام قليلة من هذه البعثة، ثم أصبحنا نرويها عنه بعد رحيله وغداً يرويها عنا آخرون.. وهكذا الحياة يا صديقى!

❊ ❊ ❊

أمام فولتير

خلال فترة إقامتى فى لندن فى إجازة اليوبيل الفضى زرت معالم لندن وقصر وندسور على بعد أميال منها، وطفت بالأماكن التى طالما قرأت عنها وسمعت بها كحديقة هايد بارك «ركن الخطباء» وميدان الطرف الأغر «الترافلجار»، والمتحف الوطنى للفن الذى يضم نفائس لا تقدر بمال، ومنها كل اللوحات الفنية الشهيرة التى طالما تمتعت برؤية صورها على بطاقات البريد وزرت متحف الشمع.. وأمضيت ساعة واقفا فى طابور التذاكر حتى جاء دورى فى الدخول، وتجولت بين قاعاته منبهرا.. فمررت على ما يحتويه من تماثيل لزعماء العالم السابقين والحاليين سريعًا، ثم توقفت طويلا أمام تماثيل أعلام الفكر التى يضمها. يا إلهى إننى أقف أمام فولتير فأحس كأنه على وشك أن يرد على تحيتى ويمد يده لمصافحتى.. إنه ضئيل الجسم طويل الأنف مجدور البشرة عيناه زرقاوتان، لكن عظام وجهه وذقنه تشى بقوة الشخصية.. هذه إذن هى الرأس التى أبدعت روائع الأدب الفرنسى والتراجم التاريخية والرسائل والكتابات الفلسفية والاجتماعية الجريئة، وصبَّت نار الغضب على التعصب الدينى وشرور الظلم

الاجتماعى. هذه هى اليد التى كتبت رواية «كانديد» فى ٣ أيام و«مأساة أوديب» و«الصغير الكبير» وكتبت أيضًا «إن صناعتى هى أن أقول ما أعتقد» و«فكر ودع غيرك يفكر!» و«الله والحرية» وفى هذه العبارة الأخيرة تجتمع فلسفة فولتير كلها.

استغرقنى التأمل وأنا واقف أمام تمثال فولتير، فتذكرت فجأة رأى الفيلسوف الألمانى شوبنهاور خلال انشغاله بتخليد ذكرى جوته، من أن العلماء والفلاسفة الذين يخدمون العالم برؤوسهم ينبغى أن تقام لهم تماثيل نصفية، أما السياسيون والقواد الذين يخدمون العالم بكيانهم كله فينبغى أن تقام لهم تماثيل كاملة! وتعجبت لفكرة شوبنهاور من أن السياسيين والقواد يخدمون العالم بكيانهم، اللهم إلا إذا كان يقصد أنهم يضربون «بالشلوت» أحيانًا فى سبيل الإنسانية!

انتهت الجولة فى متحف الشمع بمشاهدة المشهد المجسم لمعركة «واترلو» بين القائد الفرنسى نابليون والقائد الإنجليزى ولنجتون، التى هزم فيها نابليون وتحطمت خلالها أسطورته.

وغادرت المتحف وليس فى مخيلتى من صور العظماء والقواد الذين يضمهم سوى صورة هذا القصير الماكر الساخر الذى توقعت القابلة التى ولدّته ألا يعيش أربعة أيام، فعاش ٨٤ عامًا، كرس

معظمها ليحطم ما بالعالم من ادعاء ونفاق، واختتم حياته بنكتة حين جاءه القس على فراش الموت ليسمع اعترافه فسأله بصوت ضعيف: من أرسلك إلى هنا أيها السيد!

فأجاب القس: أرسلنى الله إليك يا سيد فولتير. فقال فولتير له: هكذا.. أين إذن أوراق اعتمادك! ثم لفظ أنفاسه الأخيرة ضاحكا كما عاش طوال حياته ضاحكا ساخراً!

***

الأطرش فى الزفة!

الويلشيون سكان مقاطعة ويلز قوم دافئو المشاعر وأكثر حرارة من الإنجليز الأصليين، ولهم لغة خاصة يتكلمها العجائز إلى جانب الإنجليزية.. وتحرص بعض الأسر على تعليمها لصغارهم كما يتناقل النوبيون لغتهم غير المكتوبة هنا فى مصر والسودان، ولهم أيضًا إذاعة ومحطة تليفزيون تذيعان برامجهما المحلية من ويلز لعدة ساعات كل يوم.

وفى ويلز حزب محلى يطالب بالانفصال عن بريطانيا، وقيام دولة ويلشية مستقلة تتحالف مع بريطانيا لكنه حزب صغير لا تأثير له.

وذات يوم دعانا رولاندز لحضور مهرجان سنوى، يقام فى مناسبة ويلشية محلية لم أعد أذكرها، فركبنا سيارة أتوبيس استأجرها لنا المعهد إلى مقر المهرجان على بعد أميال فوجدناه ساحة كساحة مولد السيد البدوى، تنتشر فيها الخيام التى تعرض الهدايا الويلشية. وفى خيمة كالبالون كان الاحتفال الرئيسى، فجلسنا فى المقدمة ننتظر بدء البرنامج فبدأ بالنشيد المحلى فلم نفهم منه كلمة واحدة لأنه بالويلشية.. ثم بدأت عروض الفن الشعبى وانتهت وجاء دور

الخطباء، فتوالوا على الميكروفون يخطبون بحماس فائق ويشيرون بأيديهم بعصبية، وتتصاعد الدماء إلى وجوههم فتصبغها بالحمرة من شدة الأنفعال ونحن نتلفت حولنا فى حيرة.. فالخطباء جميعًا يخطبون بالويلشية التى لا نعرف منها حرفًا واحدا.

وتلفت فوجدت براون ينظر مبتسما ابتسامته الساخرة، فسألته: ماذا يقولون؟ فأجاب بالابتسامة نفسها: لا أعرف.. لكنهم فيما أعتقد يطالبون باستقلال ويلز وبالانفصال عن بريطانيا! فقلت: تعرف الويلشية؟ فقال: لا.. إنها لغة ميتة منقرضة فلماذا أجهد نفسى فى معرفتها، فقلت له: لماذا جئنا إلى هنا إذن! فقال باختصار: هذا هو السؤال.. لقد قلت لرولاندز إن هذه الزيارة لا تستحق عناء الانتقال إليها فالاحتفال لا يهم الصحفيين العرب فى شىء والمتحدثون فيه يتحدثون بلغة لا يعرفونها.. وليست هناك ترجمة إنجليزية لما يقولون فلماذا يشهدونه.. ولكنه أصر على أن تذهبوا إليه، وعلى أن أرافقكم إلى هنا، وعلى حضور هذا الاحتفال الرئيسى بالذات. ولابد من الالتزام بالتعليمات. لهذا جئنا، قلت له: حسنًا لقد عرفنا على الأقل أن فى بريطانيا من لا يزالون يطالبون بالاستقلال التام أو الموت الزؤام، كما كان المصريون يهتفون فى شوارع القاهرة فى ثورة ١٩١٩.

وانصرفت عنه إلى تأمل الوجوه الويلشية المميزة التى تحضر

الاحتفال فى انتظار أن تنتهى الكلمات الحماسية لنسمع الغناء، فهو لغة عالمية لا تحتاج إلى مترجم لكن الخطب طالت.. والملل تضاعف وبدأ النوم يداعب عيونى، وكلما هممت بأن أستسلم له انتفضت مذعوراً على «شخطة» حماسية من الخطيب فأجده مضرج الوجه بالانفعال، ثم أنظر حولى فأجد الحضور هادئين إلا من قلة صغيرة «تتجاوب» مع الخطيب فى انفعالاته: وأثار ذلك تساؤلى فهمست لبراون بملاحظتى فقال لى: هؤلاء المتجاوبون هم ممن مازالوا يعرفون الويلشية ويتمسكون بها.. أما الآخرون الهادئون فهم ويلشيون فعلاً ولكنهم نسوا لغتهم القديمة.. ولا يفهمون المتحدث وإن كانوا يحاولون، ضحكت وقلت له: إنهم مثلنا إذن كالأطرش فى الزفة، ثم رحت أشرح له معنى العبارة.. وأرددها بالعربية حتى حفظها.. وقال لى ضاحكًا: صحيح «نحن أطرش إن زفة»[1]! فى هذا المكان، هيا بنا منه وليفعل رولاندز ما يشاء! ونهض ضاحكًا ونحن وراءه فرحين بالإفراج عنا من هذا المعتقل!

* * *

(١) إنْ: كلمة إنجليزية بمعنى «فى».

تشكّى لبيد!

أيامنا تمضى فى حضور المحاضرات والتجول فى شوارع كارديف وقضاء الأمسيات فى البيت العالمى. . لكن لماذا أصبحت الأيام تمضى بطيئة هكذا؟ ولماذا أصبح الحزن الهادىء رفيقًا دائمًا بلا سبب واضح والأعصاب هشة تستجيب لأى استفزاز؟ لقد تكفلت الأيام بعملية انتقاء طبيعية بين زملاء الدورة ورفاق البيت العالمى، فازدادت روابطى بعونى ومنى وسلوى ومرتضى وأحمد السودانى، وضعفت صلاتى بالرفيق وزميله والجماهيريين الثلاثة، وبيير وماريّا وبقية نزلاء الإنترناشيونال هاوس، حتى لم أعد أبدأ أحدًا منهم بتحية.

وظننت أننى وحدى الذى أعانى من هذه الحالة، لكنى اكتشفت أن هذا أيضًا هو حال عونى وسلوى، وأنه فيما أتصور عرَض من أعراض «الهوم سِكْنِس» أو مرض الحنين إلى الوطن، صحيح ما أعجب الإنسان! لقد سعيت إلى الذهاب إلى هذه الدورة بكل إصرار، ومن قبلها عاندنى الحظ فى بعثة مماثلة حزنت لضياعها منى بعد أن كانت أقرب إلىّ من حبل الوريد، وكانت لدراسة الصحافة

فى المجر وكنت مرشحًا لها من نقابة الصحفيين وخضت من أجلها امتحانًا شاقًا فى السفارة المجرية، استغرق وقت الإجابة التحريرية عن أسئلته حوالى ٤ ساعات.. وكانت أسئلة تشمل معارف عديدة من تاريخ المجر إلى تاريخ المذاهب السياسية إلى فن الصحافة، وكان عدد المرشحين من نقابة الصحفيين لهذه الدورة ستة، والمطلوب اختيار اثنين منهم فجاء ترتيبى الثانى، وأعددت حقيبتى للسفر. وفى اللحظة الأخيرة رفضت جريدتى الموافقة على السفر، رغم أنى كنت قد حصلت على موافقة مبدئية على التقدم للبعثة، وحين تقدمت بطلب إذن السفر قال المسئول وقتها، وكأنه لم يسمع من قبل بأمر هذه البعثة: المجر؟ وهل فى المجر صحافة لتدرسها.. لا.. لا أوافق. فكانت نهاية حلم البعثة بالنسبة لى وسافر التالى فى الترتيب، وحزنت طويلاً لضياعها.

ثم مرت تحت الجسور مياه كثيرة حتى جاءتنى فرصة هذه الدورة الدراسية فسعدت بها واعتبرتها تعويضًا عن الدورة الأولى، وأقبلت عليها بكل همة.. لكن ما بال الفرحة قد هدأت والضحكة قد خمدت، وما بالى أمضى الساعات الطويلة خلف زجاج نافذة غرفتى أرقب شاطىء البحر وأسطح المنازل الحمراء صامتًا.. أقرأ قليلاً.. وأسرح كثيرًا.. وأنتظر أن يطرق بابى أحد من الأحباء ليخرجنى من ضيقى.

أيكون حالى هذا هو ما عبر عنه أمير الشعراء أحمد شوقى، حين قال:

تشكـى لبيد لطـول الحيـاة ولـو لم تطل لتشكى القِصَرَ (*)

أم يكون ما عبر عنه الشاعر حين قال:

يطلب الإنسان فى الصيف الشتا فـإذا جاء الصيف أنكــره

ليس يرضـى المرء حـالا واحـدًا قُتِــل الإنســان مـا أكفــره

آه لو لم يكن القلب مثقلاً بالوحدة. لضحكت حين تذكرت بيت شوقى، كما كنت أفعل دائمًا؛ لأنى أتذكر معه تعليق الدكتور لويس عوض عليه فى كتابه الذى أوحى إلى بكتابة هذا الكتاب «يوميات طالب بعثة»؛ إذ يقول: فهمنا أن يتشكى لبيد لطول الحياة.. لكن كيف يتشكى القصر لو لم تطل؟ أى كيف يشكو بعد وفاته وبأى لغة؟ صحيح قتل الإنسان ما أكفره!

* * *

وداعًا.. بريطانيا!

مضت الأيام بطيئة أحيانًا، سريعة فى أحيان أخرى.. واقتربت الدورة الدراسية من نهايتها.. وتحدد الموعد الذى ستختتم فيه الدراسة فى كارديف ووزع علينا رولاندز بيانًا يحدد الخطوات الأخيرة من الدورة فإذا به يتكشف عن مفاجأة لم تكن مسك الختام.. فلقد كان النظام الذى يتبعه رولاندز فى تنظيم هذه الدورات تطبيقًا عمليًّا للصورة الهزلية التى تروى أن رجلاً قد صنع «تورتة» جيدة الصنع أجهد نفسه فى صنعها وأنفق على شراء مكوناتها بسخاء.. ثم رأى أن يوفر فى تكاليفها بضعة قروش فرشَّها بالرمل بدلاً من السكر وقدمها لضيوفه!

فلقد كان النظام الذى يتبعه هو أن يعلن اختتام الدورة الدراسية فى كارديف، ثم ينظم انتقال الدارسين بالأتوبيس الخاص إلى محطة فيكتوريا فى لندن.. وهناك يتركهم للأقدار حيث ينزل كل منهم فى أى فندق صغير يختاره، وبعد ثلاثة أيام ينتقل إلى فندق «بلومز برى» ليقيم فى ضيافة المعهد لمدة ليلتين أخريين استعدادًا لمغادرة لندن، ولحضور حفل تسليم الشهادات فى مقر إدارة المعهد فى العاصمة البريطانية..

أما لماذا اختار هذا النظام فلكى يوفر تكاليف إقامة كل دارس فى فندق «بلومز برى» لمدة هذه الليالى الثلاث.. معللاً ذلك بأن المعهد يدفع لكل دارس مبلغًا صغيرًا مقابل الإقامة خلال هذه الفترة!

وكان هذا النظام مثار شكوى الدارسين فى كل الدورات السابقة.. ومثار انتقاد أساتذة المعهد أنفسهم. لكن رولاندز كان يتمسك به ويصر عليه فى عناد غير مفهوم! وكان من تقاليد المعهد أن يعقد جلسة مناقشة فى ختام المحاضرات، يحضرها رولاندز وأساتذة المعهد والدارسون.. ويبدأ رولاندز المناقشة طالبًا سماع ملاحظات الدارسين وانتقاداتهم على برنامج الدورة، ولاحظت قبل بدء هذه الجلسة أن براون وفيرث يشاركان الدارسين امتعاضهم من تركهم فى لندن لمدة ثلاثة أيام تحت رحمة القدر.. وأنهما يكادان يحرضان الدارسين على مناقشة رولاندز، والاحتجاج على هذا النظام خلال المناقشة.

وبدأت الجلسة وطلب رولاندز أن يسمع آراء الدارسين، فكانت معظم الآراء تدور حول ما يمكن أن نسميه بالخدمات المصاحبة للدراسة فى الدورة كالشكوى من سوء الطعام فى البيت العالمى.. والشكوى من عدم التزام المعهد باستضافة الدارسين فى لندن خلال الأيام الأخيرة من إقامتهم فيها.. أما برنامج الدورة فلم يحظ التعليق عليه أو انتقاده بمساحة واسعة من الاهتمام لسبب بسيط، هو أننا كنا

مهمومين فعلاً بالبحث عن فندق صغير فى لندن.. ونخشى ألا نجد مكانًا لنا خلال هذه الأيام الثلاثة قبل الانتقال إلى فندق «بلومز برى»، وكان حجة رولاندز فى ذلك أن الفندق مشغول خلال هذه الأيام، أما براون فلقد قال لنا سرًا: إن هذا غير صحيح لكن رولاندز يحب دائمًا أن يوفر بضعة جنيهات، من تكاليف الإقامة ليثبت لإدارة المعهد حرصه على أموالها.

بعد جلسة المناقشة انصرفنا إلى البيت العالمى لنعد حقائبنا، وفى الصباح الباكر جاء رولاندز رغم سخونة المناقشة معه فى الليلة السابقة، باسمًا مؤكدًا لنا بطريقة عملية أن الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية، وأظن أنه أحس بشىء من الحرج فعلاً حين رآنا نتعثر فى حقائبنا وقواميسنا وكتبنا.. وأدرك ساعتها كم كان من الأفضل لنا لو أقمنا فى مكان واحد حتى موعد سفرنا، بدلاً من أن «ندوخ» فى التنقل بين الفنادق الصغيرة ونحن نحمل كل هذه الأثقال، ونبحث لأنفسنا عن غرف خالية فى قمة الموسم السياحى فى لندن، الذى ساهم يوبيل الملكة إليزابيث فى ازدهاره وتنشيطه.

وبروح رياضية مازلت أذكرها له، تقدم منى وحمل عنى قاموسًا ضخمًا.. وحقيبة صغيرة ليساعدنى على ركوب الأتوبيس فشكرته بقلب خال من الموجِدة على هذه اللفتة الرقيقة.. وأسفت على أن حدة المناقشة بينى وبينه فى جلسة الاستماع حول هذه النقطة بالذات

كانت قد وصلت إلى درجة عالية، لكن هذه سمة واضحة من سمات العقل البريطانى والغربى بصفة عامة، وهى التفرقة بين الخلاف فى الرأى ولو وصل إلى أقصى مداه.. والعلاقات الإنسانية المفترضة بين المختلفين فى الرأى.

حملنا الأتوبيس إلى لندن، وكانت «منى» طالبة الوثائق والمكتبات قد سبقتنا إليها فى مهمة علمية خاصة بها، فطلبنا منها أن تحجز لنا غرفتين فى فندق صغير فى وسط لندن، وانطلقنا إليه فوجدناه فندقًا صغيرًا من فنادق لندن التى تعمل بنظام «السرير والإفطار» ولا تقدم أية خدمات أخرى للنزلاء، ويديرها عادة موظف واحد أو موظفة واحدة.. ولكن «منى» لم تجد سوى غرفة واحدة خالية فى هذا الفندق ونزلت فيها مع عونى وأقامت سلوى مع منى فى فندق هندى صغير قريب، وأمضينا الأيام الثلاثة الخالية فى زيارة معالم لندن وتناول الوجبات فى المطاعم والمقاهى العربية فى شارع «كوينز واى»، الذى كان أيامها مركزًا لتجمع المصريـين والعـرب فى لنـدن، قبل أن ينتقل هذا المركز الآن إلى شارع «إدجوار رود» فى قلب العاصمة البريطانية.

وجاء يوم تسلم الشهادات فذهبنا فى الموعد المحدد إلى إدارة المعهد.. ووجدنا رئيس مجلس الأمناء الذى يشرف على إدارة مؤسسة طومسون للأعمال غير التجارية فى انتظارنا.. ووجدنا أيضًا

رولاندز ومصورًا محترفًا ينتظراننا وسلمنا رئيس مجلس الأمناء الشهادات.. ورفض رولاندز أن يمنح «ع» الدارس الجماهيرى الذى كان يزونا من حين إلى آخر فى كارديف شهادة التخرج، وسلمه بدلاً منها ورقة تفيد أنه حضر جانبًا من المحاضرات، التى ألقيت خلال الدورة.

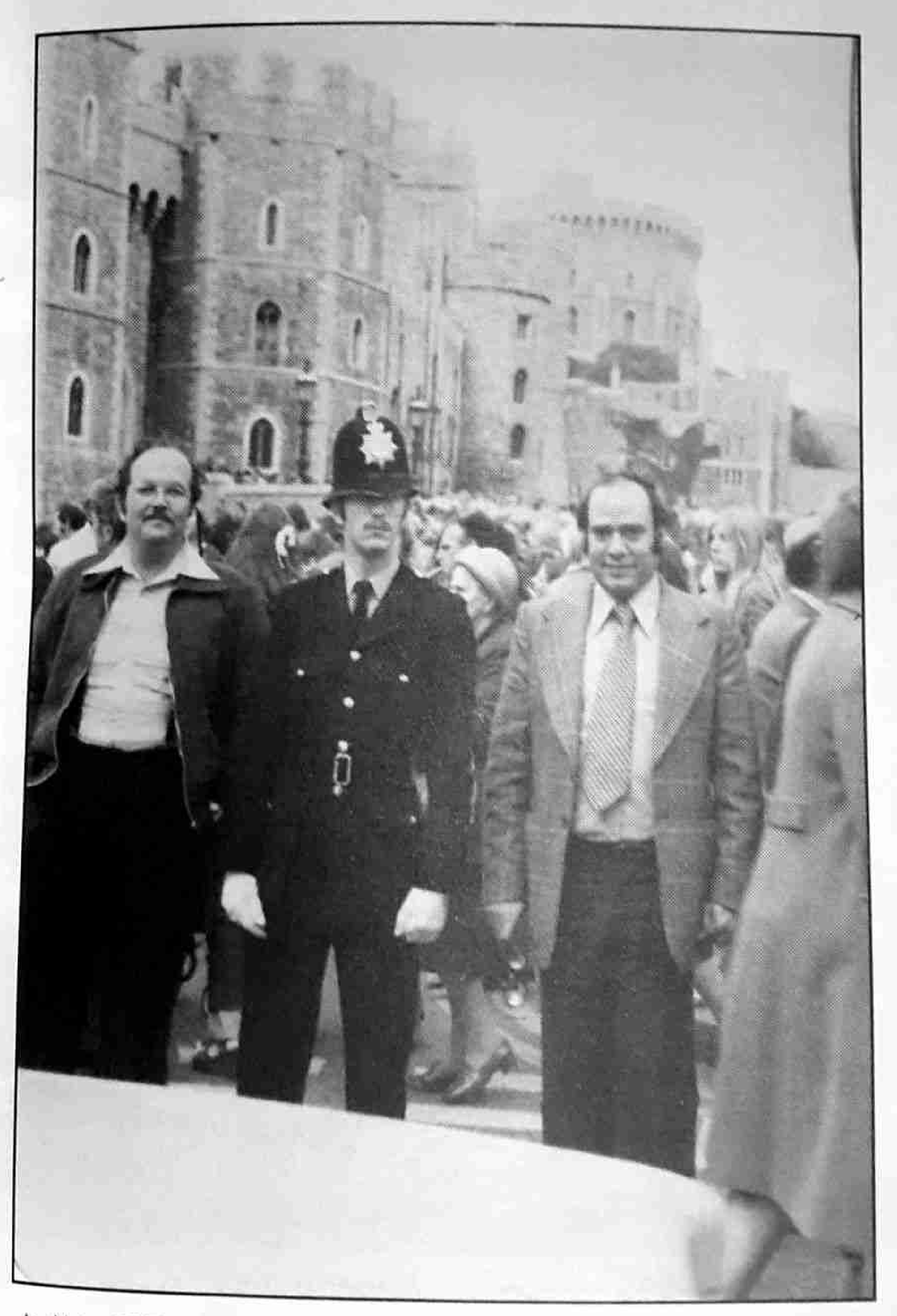
وعلمت فيما بعد أن براون ـ وقد كان أكثر الأساتذة اقترابًا من «ع» وأكثرهم مداعبة له بل وأنسًا بصحبته خلال الفترات، التى كان يأتى فيها إلى كارديف ـ هو نفسه الذى هدد بالاستقالة لو جامل رولاندز «ع» وأعطاه شهادة تخرج كبقية زملائه الذين أمضوا شهور الدورة فى عمل جاد محاولين الاستفادة منها.

وبقدر أسفى «ع» وللصدمة التى أحس بها حين أعطاه رولاندز هذا الخطاب وللمتاعب التى قد يتعرض لها بسبب ذلك.. خاصة وأن دراسته مدفوعة الأجر، على عكس بقية الدارسين، على قدر ما أعجبت بموقف براون الذى أثبت لنا فعلاً أنه رغم هذره ومناوشاته رجل جاد عادل يفرق بين العلاقة الشخصية والعمل.

وكان هذا الدرس فى التزام الموضوعية عند تقييم جهود الآخرين هو آخر الدروس التى تعلمتها خلال هذه الشهور، التى أمضيتها بعيدًا على أهلى وأصحابى فى بريطانيا، وما كان أكثر هذه الدروس وما كان أعمق تأثيرها فى نفسى!.



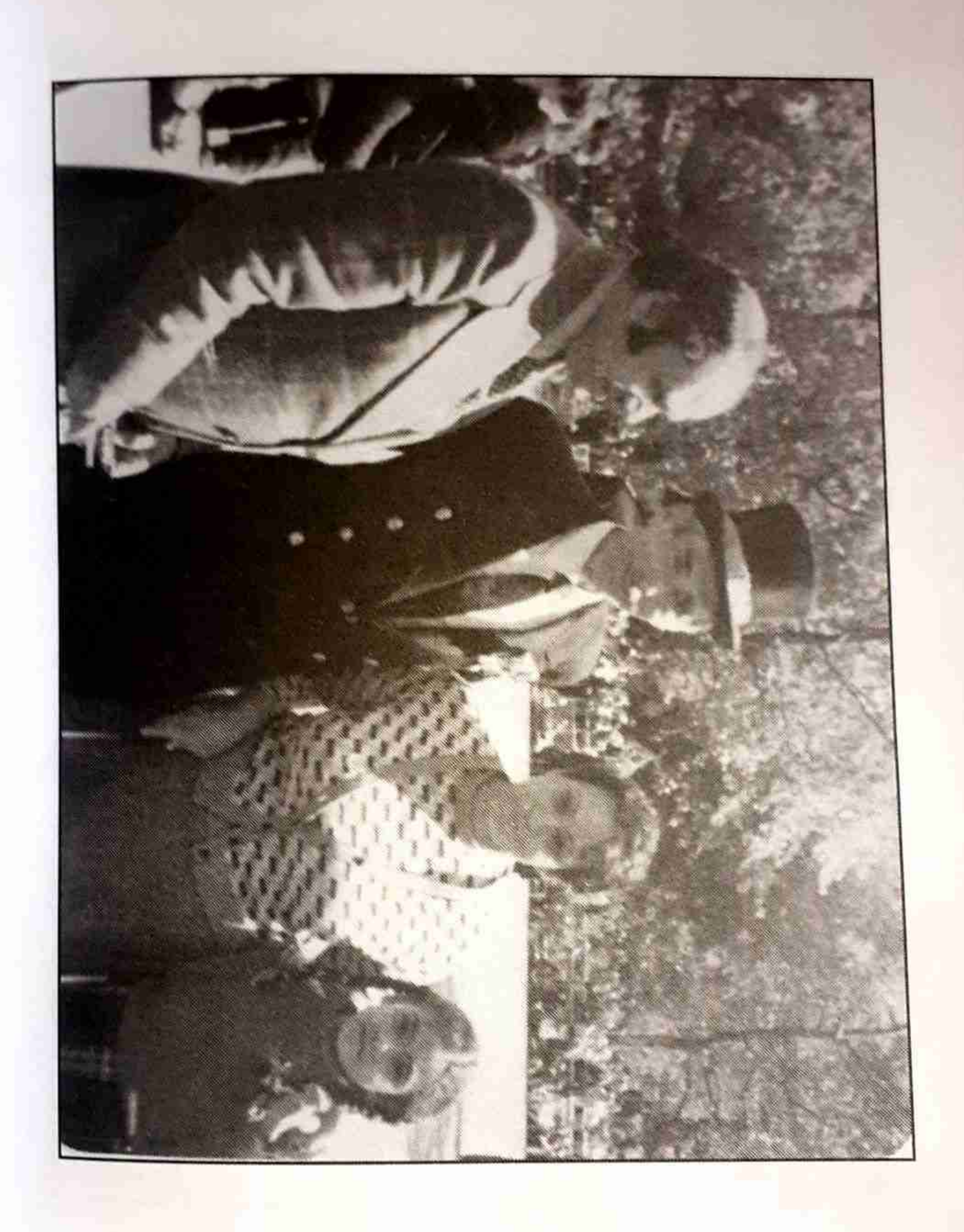
عدد من زملاء الدورة الدراسية فى صورة تذكارية أمام مبنى المعهد،
ويبدو فى أقصى اليسار من الصف الأول مستر د/ رولاندز، مدير المعهد.



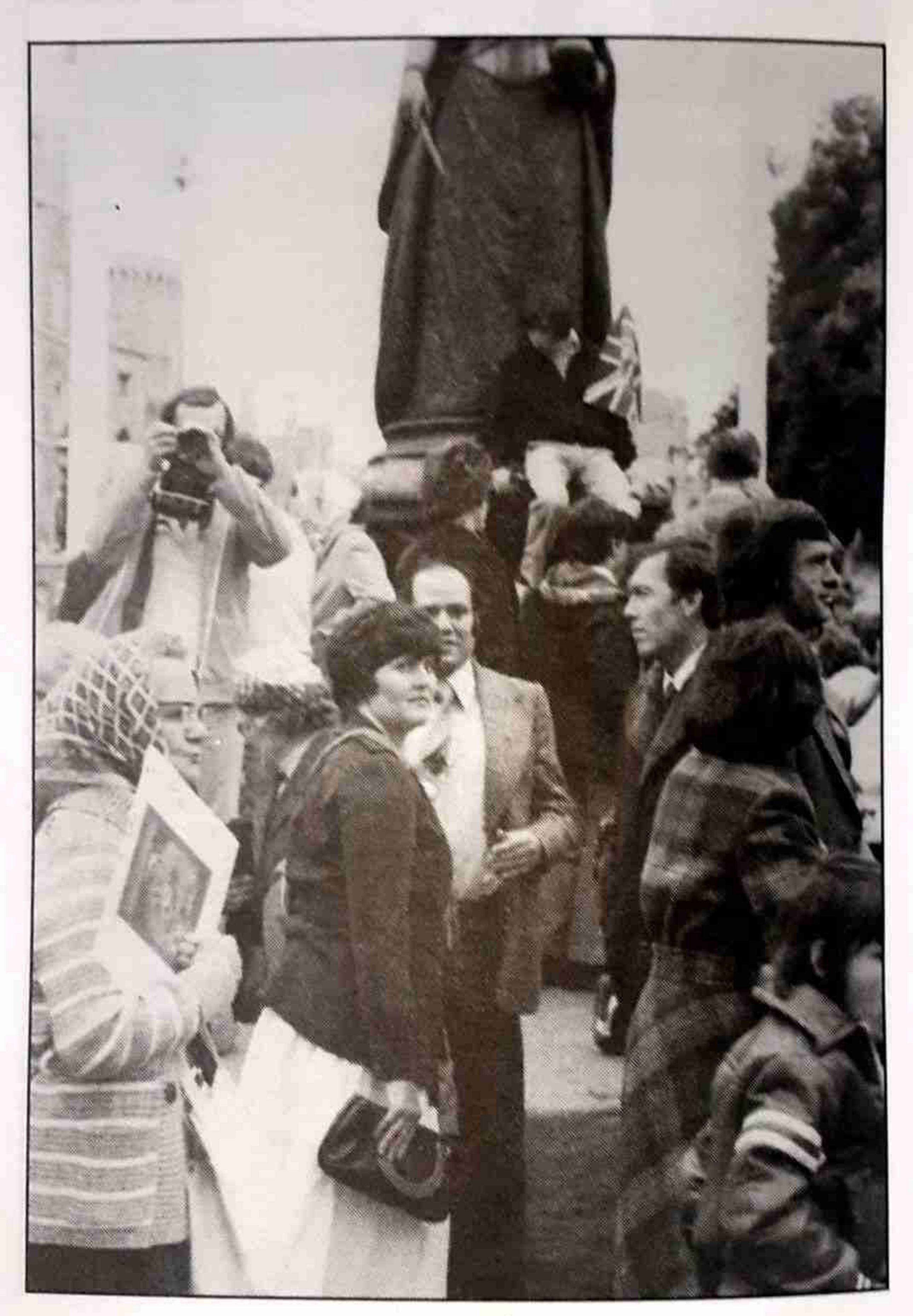
فى وندسور مع شرطى إنجليزى أمام قصر وندسور الشهير الذى حكمت منه الملكة فيكتوريا بلادها.



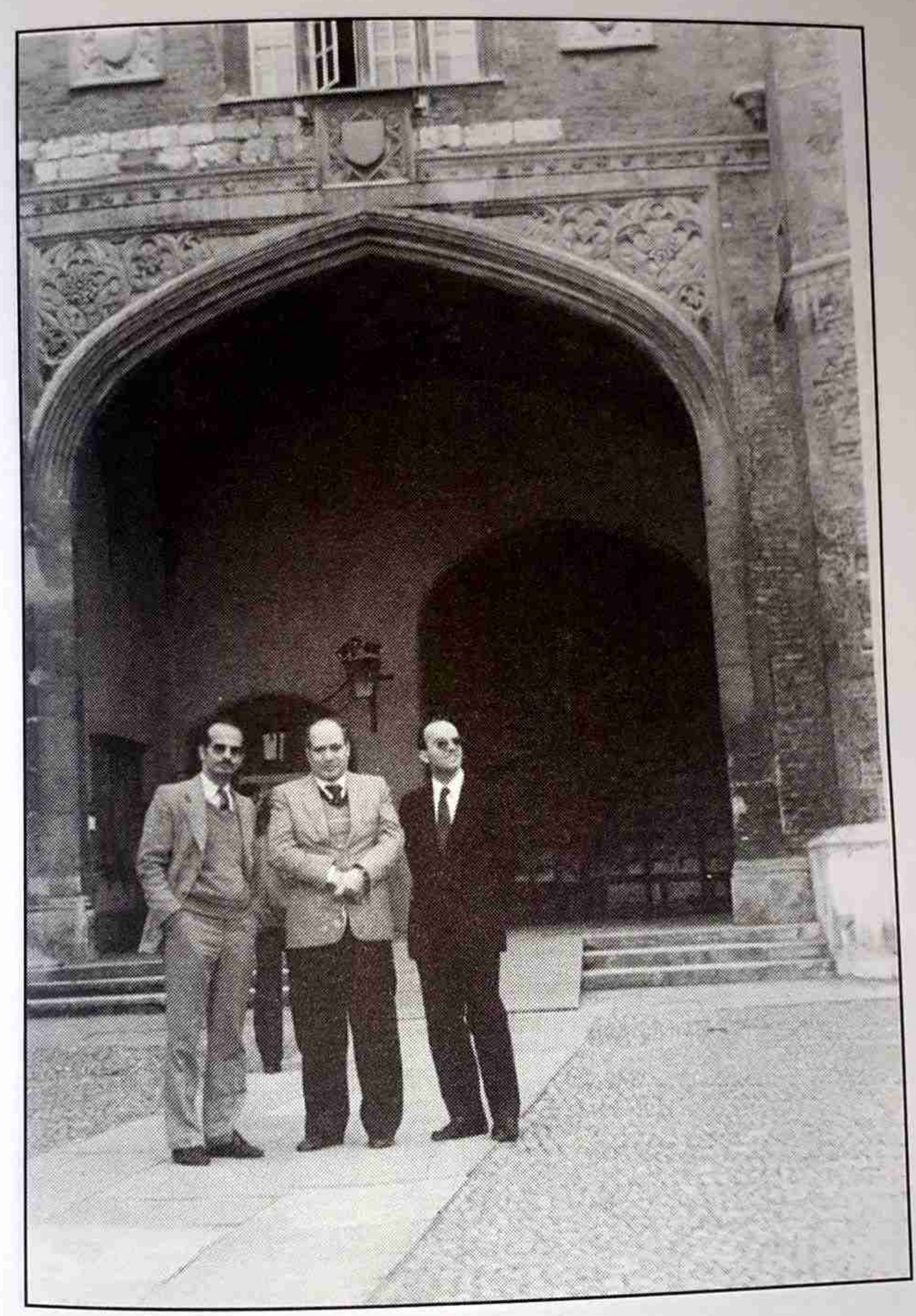
مع عدد من الدارسين الأفارقة من نزلاء البيت العالمى
فى «بنارث»... وفى الخلفية البيت الذى أقمنا فيه طوال الدراسة.



مع أحد منظمى احتفالات اليوبيل الفضى للملكة إليزابيث
الثانية فى أحد شوارع لندن.



وسط السياح الأجانب والمحليين أمام تمثال
الملكة فيكتوريا فى باحة قصر وندسور.



مع صديقين أمام إحدى كليات جامعة أكسفورد
فى زيارة لهذه الجامعة العريقة.

كتب للمؤلف

١- أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٨
٢- يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى ١٩٨٧
٣- هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٨
٤- صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة ٢٠٠١
٥- نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٦- العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٧- صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٨- افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٩- اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
١٠- أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة ٢٠٠١
١١- أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
١٢- رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٣- أماكن فى القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٤- لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الثالثة ٢٠٠٠
١٥- نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٦

١٦- أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٠
١٧- مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٨- أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٩- طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢٠- أعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢١- الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢٢- سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الثالثة ٢٠٠١
٢٣- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٤- صور من حياتهم	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ١٩٩٧
٢٥- أهلاً .. مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٦- قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٧- أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٩
٢٨- حصاد الصبر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠١
٢٩- صوت من السماء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠١

• كتب للمؤلف من إصدارات «الدار المصرية اللبنانية»

٣٠- العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة السادسة ٢٠٠٣
٣١- وقت للسعادة وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة ٢٠٠٣
٣٢- شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٢
٣٣- خاتم فى إصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٣٤- وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٣٥- ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة ٢٠٠١
٣٦- عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٣٧- تراتيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٣
٣٨- الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٣
٣٩- دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٣
٤٠- أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة ٢٠٠٢
٤١- من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٤٢- الأرض المحترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٢
٤٣- سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٤- هو وهى والآخرين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٥- حكايات شارعنا	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٦- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٧- الرسم فوق النجوم	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٨- تحية المساء	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٩- الزهرة المفقودة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠٤
٥٠- يوميات طالب بعثة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ٢٠٠٤
٥١- سائح فى دنيا الله	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ٢٠٠٤

المحتويات

* * *

يوميات طالب بعثة

ليست هناك لحظات سعادة أو متعة يلقاها أحدنا فى حياته ، مثل تلك اللحظات التى يعيشها الكاتب ، يسترجع فيها أحاسيس ماسجله فى سابق الزمان ، وكيف كانت ملامح أسلوب كتابته أو ما يسميه (تجربة شاب فى الكتابة) ..

وتواصلا مع عطائه الإنسانى الثرى ويقينا بأن النتاج الأدبى ما هو إلا سلسة متصلة الحلقات ، تسلم سابقتها لتاليها ، وتمهد تاليتها لما يتلوها .. آثر الكاتب أن يعايشه قراؤه الأعزاء تلك اليوميات العزيزة على فؤاده والأثيرة إلى نفسه .. إنها لحظة شفافية جديرة بالتسجيل .. لم يبخل المؤلف بأن نقاسمه إحساسه بها ... من خلال بانوراما جميلة بها عشرون لقطة رائعة ..



- مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب .
- حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين الصحفية عام 1992 كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية .
- يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام 1982 ، ويشرف على باب بريد الأهرام .
- صدر له 51 كتابا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الأخر قصصا قصيرة وصورا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات .
- له ثلاث مجموعات قصصية هى : (أماكن فى القلب)و(لاتنسنى) و (الحب فوق البلاط) .



الدار المصرية اللبنانية